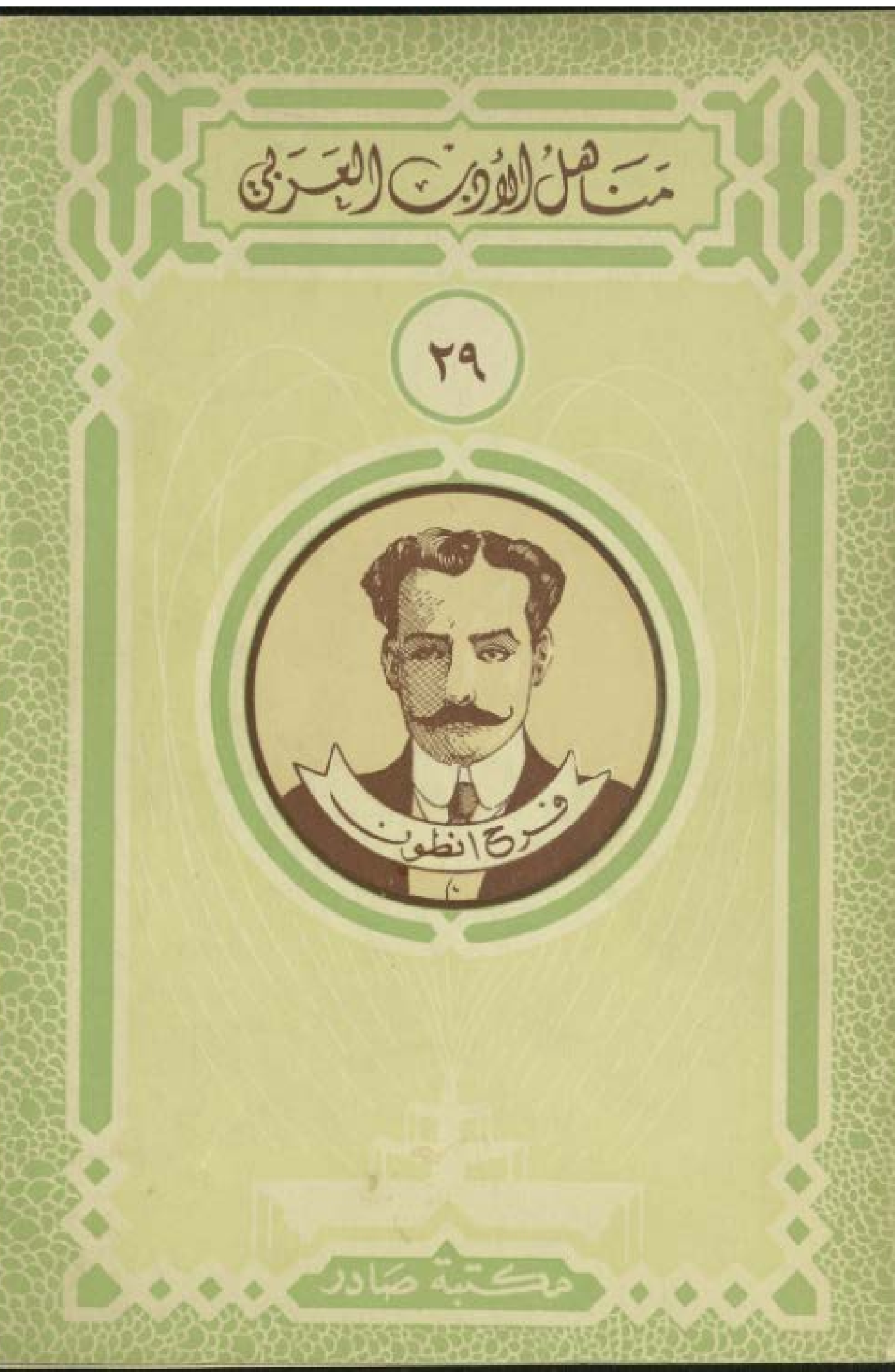

مناهل الأدب العربي
٢٩
فرح انطون
مكتبة صادر


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY



مناهل الأدب العربي

٣٩

مختارات من

فرح أنطون

مكتبة صادر
بيروت

مطبعة المناهل : ٤٩ — ١٩٥٠

فرح انطون
١٨٧٤ - ١٩٢٢

كان في الثانية عشرة من عمره عندما دخل مدرسة بكفتين يتلقى فيها العلم؛ وهي مدرسة للروم الارثوذكس بقضاء الكورة في دير فوق طرابلس . وكانت يومئــذ على جانب من الرقي والازدهار ، تعلم العلوم والآداب والفقه الاسلامي ، واللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية . ومع انهــا مدرسة طائفية ، فلم تصطبغ بها اسرتها التعليميــة ، بل كانت خليطاً لا ينتمي الى طائفة واحدة ؛ فالرئيس بروتستنتي ، والمدير والناظر مارونيان ، واستاذ العربية والفقه مسلم ، ولم يكن فيها سوى معلم أرثوذكسي واحد، كما يخبرنا فرح انطون في مجلته « الجامعة ». فأقبل اليها الطلاب على اختلاف النحل ، تسودهم الالفة والمودة، فتركت هــذه المدرسة المختلطة أثراً بليغاً في نفسه لبعدها عن التعصب الديني ، ويقول في ذلك : « وانمــا الأثر الذي اشرت اليه ، اثر ادبي لم يــبرح نفسي قط ، ولعله كان ذا تأثــير على أفكاري في كل حياتي . » اه

ولزم الفتى الناشىء هـذه المدرسة الى السنة السادسة عشرة من عمره ، فاتقن فيها العربيـــة والفرنسية وطرفاً صالحاً من العلوم ؛ وكان لا يميل الى الانكليزية ، فأعرض عنها ، وسخر برفاقه الذين يعنون بها دون الفرنسية ، الا انه ندم على تنكره لها ، بعدما سافر الى الولايات المتحدة ، وشعر بالحاجة الملحة اليها .

وكان شديد الشغف بالآداب الفرنسية ، فأكب على مطالعة مصنفات أعلامها ، منهوماً لا يشبع ، وجليداً لا يعيي له صبر ، أو يعتريه ملل ، فكان من اكثر الادباء حباً للقراءة ، كما يشهد على ذلك الكتب المتنوعة التي نقلها الى العربيـة او لخصها ، أو بحث فيها دارساً منتقداً . ويخبرنا عن نفسه انـه صرف عمره في درس الفرنسية ، وقرأ فيها ما لا يقرأه غيره في مائة سنة .

ولم تقتصر مطالعاته فيها على ما انتجه ابناؤها ، بل شملت جانباً مما نقل اليها من آداب الالمان والانكليز والروس فكانت له ثقافة غربية متسعة اضافها الى ثقافته العربية والشرقية . وهي في جوهرها عقلية اكثر منها أدبية ، فقد كان ينزع الى حيـاة الفكر ، فيعنى بالفلسفة والتـاريخ والاجتماع والدين ، وان لم يهمل الادب والفن ولاسيما القصص والتمثيل .

على ان هـذه الثقافة المأخوذة من مطالعات سريعة غـير متئدة ، فوضوية غير منتظمة ، متنوعة غير محدودة ، مفرطة غير

معتدلة ، لا يسهل ، في الغالب ، هضمها على ملتهمها ، فتحدث له اضطراباً في الحفظ وارتجاجاً في التفكير ، لا يقتدر معهما على التأمل الصحيح ، ليبني رأياً ثابتاً بعد التدقيق والتمحيص . فيصبح عرضة للتأثرات الطارئة عليه من كل كتاب يقرأه ، أو مذهب ينتهي اليه .

وهذا ما نجده عند فرح انطون في ابحاثه وقصصه، فقد كان متأثراً بروح الثورة الفرنسية ، على ما فيها من حسن وقبيح ، يلذ له ان يشاكس رجال الدين وأرباب الأموال ، وينادي بالمساواة وحرية الفكر وحقوق الانسان ، ولكنه لا يتنكر لسنّة تنازع البقاء ، والانتخاب الطبيعي ، وسيادة الافضل . ويكتب عن ابن رشد معجباً بآرائه في ازلية المادة، ملخصاً اقوال رينان فيه ، ويتطرف الى بحث ديني جعل الشيخ محمداً عبده يناظره ويرد عليه . وكان ، مع ذلك ، يميل الى رأي الغزالي في فصل الدين عن الفلسفة، لأن الدين ينبجس من القلب ، والفلسفة من العقل . ولخص تاريخ المسيح واعمال الرسل لرينان، وتحمس له كثيراً وانتحل مذهبه في انكار المعجزات دون ان يحاول درسه ونقده ليتبيّن له الصحيح من الفاسد ، على انه لم يكن معطلاً للدين ، في حقيقته الالهية ، ولا واقعاً في الجحود المطلق ، ويؤثر الاشتراكية الانجيلية على الاشتراكية المادية .

ومثل هذا الاضطراب نجده في قصته «العالم الجديد او مريم المجدلية»، فان خطبة شيشرون مستوحاة من مذهب نيتشه في اتلاف الضعيف، وتحقير الرحمة، وتعظيم القوة والصراع. وخطبة مريم في الرد عليه ترمي الى تحطيم هذا المذهب؛ وتدعو الى رحمة الضعيف كما يدعو اليها الدين.

وله قصيدة عنوانها «على جبل» نظمها في نيويورك، وجعلها بين نيتشه وتولستوي، فذكر أقوال الفيلسوف الالماني في نبذ الشرائع الدينية، وتغليب القوي على الضعيف، ولكنه احترس منها بقوله:

هذا كلام نِيتَشْ َ ان نِيتَشْ َ كا
ن مُقوّمَ المعوجّ والمُنآدِ

في زعم بعض الناس، أما مذهبي
فيــه، فأبقيـه الى ميعـادِ

ثم ذكر أقوال الفيلسوف الروسي في نقض آراء معطّل الشرائع، وقاتل الرحمة، حتى اذا سكت الفيلسوفان لم يستفد صاحبنا منهما الا التحير والارتجاج:

لم تستفد غــير التحيّر منهما
فجميعها أمسى أبا مرقال

وكذلك قصة الدين والعلم والمال ، حاول أن يشرح فيها المشكلة الاجتماعية بين العمال واصحاب رؤوس المال ، فبنى لها ثلاث مدن متجاورة تتجادل وتتخاصم وتتشاتم ، فلم يجد وسيلة للتوفيق بينها ، فدمرها كلها وتركها خراباً .

كان فرح انطون وافر الذكاء، متقد الخاطر ، واسع الاطلاع على مذاهب روسو ورينان وفولتر وكونت ، وداروين ونيتشه وماركس وتولستوي وابن رشد وابن طفيل والغزالي وعمر الخيام وسواهم، فنقل من مصنفاتهم ، ولخص آراءهم وحللها ، وأحبها كلها وأشاد بذكرها ؛ وأراد الاصلاح والحرية والخير للانسان ، ولكنه اضطرب في آرائه ، وارتج عليه ، فلم يقم له مذهب شخصي ، ولا نظام فلسفي مترابط ، مع ميله الى الحياة الفكرية. واتسع نشاطه الأدبي الى القصص والمسرحيات ، تصنيفاً وترجمة ؛ وتشبّه بكتّاب الفرنجة والروس فجعل ما صنّفه منها وسيلة لبث آرائه الدينية والاجتماعية . فغلبت عليه الخطب والمواعظ والمجادلات ، فضعفت في قصصه الميزة الادبية والفنية .

ولغته سهلة غير متكلفة ، لا يعنى باختيار ألفاظها وحسن تنزيلها ، فهي أشبه بلغة الجرائد ؛ وكان يؤثر هذا الاسلوب في الكتابة ويدعو اليه ، ويتنكر لتنميق العبارة وتنخلها ؛ ولعل

مرد ذلك الى شغفه بالثقافة العقلية ، ثم الى سرعته في العمل ، وكثرة اشتغاله بالتأليف والنقل وتحبير «الجامعة» ، فلم تنحسر له أسرار الالفاظ كما انحسرت له اسرار المعاني ، وفاتته ملكة التعبير ، فلم يدرك جماله كما ادرك جمال التفكير .

وظل يتعهد مجلته «الجامعة» في الاسكندرية حيناً وفي الولايات المتحدة آخر ، ويعالج الأبحاث الاشتراكية تصنيفاً وترجمة ، ويتوفر على القصص والتمثيل ، حتى تهدمت بنيته وانهارت قواه ؛ ويخبرنا عن نفسه فيقول : «رأيت في بعض الليالي الفجر يطلع عليّ وأنا وراء مائدة العمل .» فتوفي في مصر وهو دون الخمسين من عمره .

تربية المرأة

يكون الرجال كما يريد النساء

... والذي يزيدنا رغبة في الكلام عن هذا الموضوع طلب كثيرين من القارئات والقراء . فان بعضهم يرسل الينا يقول : النساء النساء. تكلموا عن النساء . وغيره يقول: ما معنى قولكم : يكون الرجال كما يريد النساء؟ ونسي هذا السائل ان هذا القول لجان جاك روسو لا لنا ، كما ان القول الثاني عن المدرسة هو لاستاذنا الفيلسوف جول سيمون رحمه الله .

وتقول بعض القارئات : نحب أن نقرأ تفسيركم لهذه العبارة : «يكون الرجال كما يريد النساء .» وسألت واحدة اخرى : لماذا لا تتكلمون عن تعليم البنات في باب التعليم والتربية كما تتكلمون عن تعليم الفتيان ؟ وسألت واحدة اخرى: لماذا نسيتم النساء؟ وقالت ثانية : ما هو دواء ضجر ربة البيت ؟ وسألت ثالثة: ما هي واجبات الابنة العاقلة ؟ ورابعة : ما هي واجبات ربة البيت ؟ — كل هذه الاسئلة جاءتنا مع كثير غيرها فأخرناها الى اليوم لنجيب عنها في مقالة خصوصية .

واوّل ما نجيب به اننا لم ننسَ النساء في ما كتبناه الى الآن عن التربية والتعليم، ذلك لأننا نعتبر ان الكلام في اصلاح التربية العائلية والتربية المدرسية كلام في تربية الفتيان والفتيات معاً . فاذا كان ذلك كذلك أفنكون قد نسينا النساء ؟

معاذ الله ان ننساهن ! معاذ الله ان ننسى ملكات الكون ورياحين الوجود اللواتي في أيديهن مستقبل الأمم وأزمّة الشعوب لانهن مربيات الأجيال ومنشئات الرجال . وانما قصرنا الكلام على الرجال لأن الكلام عنهم يشملهن أيضاً .

ولكن لا مندوحة لنا عن الاعتراف بأنه كان الأجدر بنا قصر الكلام على تربية النساء، لأن الكلام فيها اعم من الكلام على تربية الرجال لكونهن المربيات المثقفات ، فاذا رُبين تربية حسنة استطعن ان يربين النسل كله كذلك . وهذا معنى قول ايمه مارتين : متى ربيتم النساء فلا تهتموا بتربية الرجال لأن النساء يربينهم لا محالة . وقول روسو : كما يريد النساء يكون الرجال، فاذا أردتم أن يكونوا عظماء وفضلاء فعلّموا النساء ما هي العظمة والفضيلة .

وزيادة في تفسير هذه العبارة وايضاح المعنى المقصود منها اجابة للسائلين والسائلات نقول :

تقسم هذه العبارة الى قسمين : الأول «يكون الرجال كما

يريد النساء » وهي القضية. والثاني «اذا أردتم ان يكونوا عظماء وفضلاء، فعلّموا النساء ما هي العظمة والفضيلة» وهي النتيجة.

أما القسم الأول فمقتضاه ان المرأة متسلطة على الرجل فتجعله كما تريد. وهو قول فاسد وصحيح معاً. يكون فاسداً لدى كل الامم اذا اعتبرناه من حيث الظاهر، ويكون صحيحاً لدى كل الامم أيضاً اذا اعتبرناه من حيث الحقيقة الطبيعية.

أما فساده فظاهر من ان الرجل هو المتسلط شرعاً على المرأة في كل البلدان وجميع الأديان لا المرأة على الرجل، واما صحته فظاهرة من ان المرأة هي المتسلطة ادبياً واجتماعياً على الرجل لا الرجل على المرأة.

ويكفي لاثبات ذلك ان ننظر الى ادوار عمر المرأة وتأثيرها في كل منها.

المرأة تكون ابنة ثم خطيبة فزوجة فأمّاً فجدّة.

خمسة ادوار جميلة تتقلب فيها بين طهارة الصبوة وجمال الشباب ووقار الشيخوخة. وهي في كل منها متسلطة على قلب الانسان وحاكمة عليه.

فانها أول ما تولد يأخذ ابوها بالتفكير والتدبير استعداداً لزيادة رزقه على نسبة زيادة نفقته. لأن «المدموازل» اذا كانت اليوم صغيرة فانها ستصبح غداً كبيرة. غداً تحتاج الى الحلل

الجميلة وتطلب القبعات النفيسة ، وبعد ذلك يأتي « النصيب » فيطلب المال فوق الجمال والكمال ، وكل ذلك يزيد النفقة ، ومعلوم ان توقع زيادة النفقة يزيد اجتهاد الانسان ونشاطه في الكسب والتحصيل ، فالابنة اذاً تجلب لوالديها يوم ولادتها نشاطاً جديداً واجتهاداً جديداً يوجبان عليهما ان يفرحا بولادتها لا ان يحزنا كما يحدث احياناً عندنا ، فهي اذاً من صغرها تبدأ بالتأثير والتسلط على ما حولها ، فما أعظم هذه القوة التي تتسلط حتى في بدء طفوليتها !

ثم ينقضي دور الصبوة بطيشه ونزقه ، ويأتي دور الشباب بجماله وكماله ، ومن هنا يبدأ التأثير العظيم الذي يفوق كل تأثير في الوجود ، والسلطة الكبرى التي تفوق كل سلطة في العالم .

كانت تلك الفتاة أمس ولداً في المدرسة تلعب وتثب غير مكترثة بشيء من هذه الحياة ، همّها مقصور على رضى امها ومعلمتها ودرس مثالتها واشباع معدتها ومداعبة لعبتها ، ولكنها اليوم أخذت تهدأ شيئاً فشيئاً ، هوذا الورد اخذ يتفتح في الخدود ، والعيون أخذت تذبل وتتجلل بثوب من البهاء جديد ، والنظر صار مطرقاً ، والفكر مبهوتاً ، والرأس محنياً كوردة أثقلها الندى ، والوجنات شديدة التأثر ، كلمة تفضضها وكلمة تعسجدها . فما هذا الانقلاب العجيب الذي حدث ؟ لا شيء

سوى ان « ملكة » الوجود قد بلغت سن الملك والسلطة ، لقد قبلتها الطبيعة الجميلة في فمها القرمزي الجميل وألبسها الحسن تاج الملك ودفع اليها الشباب صولجان السيادة .

ثم مرّ الرجل فأبصر هذا السلطان فخضع صاغراً ، خضع لانه كُتب له الخضوع كما كُتب لها السيادة ، فأصبح همه مقصوراً على رضى حاكمته ، ما يُرضيها وأي شيء يسرّها ؟ هل ترضيها الحلى والحلل ، والخيل والخول ، والمراقص والمتنزهات ؟ هيا اذاً وانفق المال بلا حساب . أيرضيها المزاح الكثير فاجعل نفسك مزاحاً ، أو المقامرة الكبيرة فاجعل نفسك مقامراً كبيراً ، او الأدب والحشمة والاعتدال فاجعل نفسك أديباً ومحتشماً ومعتدلاً ، كل ذلك اكراماً لعيونها لأنه لا يهمك وقتئذٍ شيء في هذه الحياة الا رضاها .

ثم ان هذه الفتاة الخطيبة تصبح زوجتك اي انك توليها على شرفك وبيتك ومالك فيكون القول قولها والأمر في كل ذلك لها . ثم تصبح امّاً ، اي ان الطبيعة تهبكما ثمرة حبكما واتفاقكما ، وتوليها على مخلوق لطيف لتربيته فتكون هي القابضة على مستقبل ولدك وعيلتك . ثم ان هذه الام يشب اولادها فتبقى بازائهم سيدة عليهم . ثم يتزوجون فتبقى مراقبة عليهم وعلى أولادهم ، كأنها رمز الى الماضي والمستقبل وبركة للبيت الذي يعيشون فيه .

فالآن قولوا لنا ، هـــذه الفتاة التي لها السلطة المطلقة على الرجل وهو شاب خطيب تتصرف به كيفما تشاء وتجعله يصنع ما تشاء ، هذه الفتاة التي تقبض على زمامه اراد أم لم يرد حينما يصبح زوجاً لها وتزداد سلطة عليه حينما تصير امّاً ويصير أباً ، هذه الفتاة التي نسلمها شرفنا وقلبنا ومنزلنا والتي تسلمها الطبيعة النسل لتربيه لنا ، هذه الفتاة التي يكون لها تأثير عظيم كهـذا التأثير وسلطان قوي كهذا السلطان ، أية تربية ربيناها لتحسن القيام بكل تلك الواجبات الصعبة ؟ سلمناها شرفنا وشرفهـا وشرف العائلة فهل اعطيناها السلاح لتدافع بـه عنها ؟ سلمناها البيت وما فيـه ومن فيه فهل ربيناها التربية اللازمـة لتحسن الاعتناء به والقيام عليه ؟ جعلتها الطبيعة سيدة الوجود وريحانة الكون ، فهـل علمناها كيف تستعمل سيادتها لتفضي بنـا الى الخير بدل ان تفضي الى الشر ؟

كلا لم نعلمها شيئاً من ذلك بل تركناها تنغمس في الأزياء والملاهي والألعـاب ، صارفين فكرها عن الأمور النافعة لهـا ولمنزلها ، هذا اذا لم نسجنها بين أربعة جـدران هائلة ، فأخطأنا بذلك اليها والى انفسنا والى النسل والهيئة الاجتماعية كلها .

ذلك لأن اهمال تربية المرأة ذنب تقع تبعته على كل مسؤول عن هذه التربيـة ، على العائلة أولاً وعلى كل فرد ثانياً وعلى الهيئة الاجتماعية ثالثاً .

على العائلة لأن المرأة التي هي ربتها ومدبرتها اذا كانت بلا تربية فان الجهل والاهمال والشقاء يكون سائداً فيها . وعلى كل فرد لان كل فرد يجب ان يمرّ بين يدي الامّ ، فاذا كانت جاهلة اساءت تربيته فكان جاهلاً . وعلى الهيئة الاجتماعية كلها لأنها مجموع الافراد ، فاذا كانوا جهالاً كانت الهيئة مجموعة جهل لا غير .

فالطبيعة اذاً تعاقبنا على اهمال تربية المرأة دون ان ندري بهذا العقاب .

ولكن أشد عقاب تعاقبنا به على ذلك هو العقاب الأدبي . فان المرأة ملكة كما قدمنا ، ملكة وكل واحد من الرجال يخطب رضاها . فما هو رضى المرأة ، وكيف يُنال هذا الرضى ؟

هنا عقدة المسألة ، فان البسيكولوجيين يقولون : ان رضى الانسان يُنال بمجاراة أهوائه ومشاركته فيها . فاذا كان سكيراً وجعلتَ نفسك سكيراً مثله أصبحت صديقاً حميماً له ، وربما اغنتك صداقة الكاس والطاس عن كل شيء . وهذا أمر من الأمور المشاهدة في كل يوم ، اذا كان نماماً فنمَّ معه ، ومحبّاً للتمليق فملقه ، وكذاباً فاكذب ، فانك بذلك تكتسب صداقته لا محالة . وكذلك اذا كان فاضلاً وأديباً وعاقلاً ، فكن مثله تكتسب صداقته لأنك تصيب هوى نفسه وتكون شاعراً

بعواطفه ، ومن أجل هـــذا قال الشاعر : « ان الطيور على أشكالها تقع . »

فالآن والرجل محتـاج الى رضى المرأة كما ذكرنا احتياجاً جنسياً واحتياجاً ادبيّاً اجتماعيّاً كيف تكون حاله معهـا اذا كانت جاهلة لا يهنأ لهـا عيش الا بالطيش والمزاح والاسراف واللعب والنميمة والمراقص والجمعيات واهمال المـنزل وإلقاء حمل الاولاد على الخدمة والمراضع ؟ الا يضطر طلباً لرضاها الى مجاراتهـا في كل ذلك فيكون طائشاً مزّاحاً مسرفاً لاعباً وهلم جرّاً الى آخر ما في دركات الهيئة الاجتماعية ؟ اذا كانت امرأة تضحك من الادب والمتأدبين في قاعـة الا يسبقها الى ذلك كل الشبان والرجال الحاضرين ارضاءً لها ؟ اذا كانت تضحـك من فلانة لأنهـا لا تلعب ومن فلان لأنـه لا يغني ويصرخ ويمزح اضحاكاً للحاضرين ، الا يصبح جميع الرجال الجالسين في ذلك المجلس صراخين مزاحين أضاحيك ؟ نعم لأنـه يجب ان يُرضوا النساء ، ينبغي ان لا تضجر النساء ، يـلزم ان تُسرّ النساء ، وهذا معنى قول روسو : « يكون الرجال كما يريد النساء ، فاذا أردتم ان يكونوا عظماء وفضلاء فعلـّموا النساء ما هي العظمة والفضيلة . »

فأنتنّ اذاً يا سيداتنا الجميلات رئيسات الهيئة الاجتماعيـة ،

أنتنّ ملكات الملوك وسلطانات السلاطين ، فرحماكنّ لا تصرفن هذه القوة والسيادة اللتين في أيديكنّ الى الأمور التافهة المضرة بكنّ وبالهيئة الاجتماعية بل اصرفنها الى الأمور المفيدة لكنّ ولمنزلكنّ وذويكنّ والهيئة الاجتماعية .

رحماكنّ وبعيشكنّ اوجدن لنا عالماً جديداً غير عالمكنّ الذي اصبح العقلاء لا يستطيعون المعيشة فيه ، بل اصبحوا — واسمحن لنا ان نقول ذلك — يأنفون من المعيشة فيه ، عفواً ، انهم يأنفون ذلك لا من أجلكنّ ، فان الورد في الرياض والنجم في السماء والطيب في القارورة لا يملها الا البله ولا يأنف منها غير الحمقى ، ولكنهم يأنفون من خشونة الذين يتخذون في تلك المجالس بساطتكنّ وخفة ارواحكنّ ذريعة لاظهار ثقل ارواحهم وفساد آدابهم .

وهذا العالم الجديد الذي نطلبه هو عالم يكون ميلكنّ فيه مصروفاً الى الأمور النافعة المفيدة ، عالم يتقرب فيه الرجال اليكنّ بالأعمال الحميدة وطيب الاحدوثة والأدب والفضيلة والعلم والمعرفة ، فتكون هذه الفضائل هي الرائجة لديكنّ المقربة منكنّ لا نقيضها من ضروب الخلاعة والجهالة . ومتى صارت هذه أميالكنّ تلطفت خشونة الرجال وتغيرت أميالهم حرصاً على رضاكنّ لأنه « يكون الرجال كما يريد النساء . »

ونحن لا نجهل اعتراضكنّ على هذا الكلام ، فانكنّ تقلن اولاً : لماذا لا تعكسن القضية فتقولون : «يكون النساء كما يريد الرجال ، فاذا كانوا فضلاء وعظماء كان النساء فاضلات وعظيمات» فاننا نحن انما نظهر للرجال بالصفات والحالات التي يحبونها .

وتقلن ثانياً : اذا كنتم ترغبون ان نكون فاضلات وعظيمات الا يجب اولاً ان تطلبوا من الرجال ان يربونا تربية تجعلنا كذلك ؟

نقول : اما الاعتراض الثاني فأنتنّ مصيبات فيه وسنتكلم عن هذه التربية بالتفصيل في البحث التالي ان شاء الله .

وأما الاعتراض الأول فانتنّ غير مصيبات فيه ، لأن الهيئة الاجتماعية لا تربح اذا جعلت الرجل مرجع الذوق والأدب والعظمة والفضيلة في هذا العالم . الرجل من طبعه الخشونة ومن طبعكنّ اللطف . من طبعه الاثرة والقسوة والطمع وانتنّ من طبعكنّ الشفقة والحلم وصنع الجميل . وان لم يكن ذلك من طبعه فاعماله ومصالحه تشجعه على ذلك ان لم نقل انها تقضي به عليه . فاذا كان في أيديكنّ ميزان اللطف والأدب والشفقة والحلم وصنع الخير وسائر الفضائل البيتية فكيف نجعل الرجال مرجعها ومقياسها ؟

كلا ثم كلا . ليس من أحد غير كنّ دعامة هـذه الفضائل في هذه الحياة . انتنّ بيننا المربيات المهذبات المسعدات المعزيات . اذا رأى الانسان ان كل شيء في هذا العالم يسقط كمنـازل مبنيـة من الورق او بيوت مؤسسة على الرمـال ، اذا رأى الراحة خيـالاً لا يُقبض عليه ، البشر وهم اخوان يتقـاطعون ويتـذابحون كالذئاب الضارية ، الأصدقاء ينسى بعضهم بعضاً ، الاقربون يقوم بعضهم عـلى بعض ، العالم فوضى فيه شياطـين الظلم والطمع والغش والاعتداء والسلب تتسابق لافساد الأرض ومن عليها ، اذا رأى الانسان كل ذلك لا يسعه الا ان يفتش بنظره عن وتد يتمسك به في وسط هذه الزوابع الهائلة وكوة يدخل منها اليـه النور وسط ذلك الظلام الحالك ، فـلا يرى حينئذ الا وجهك الباسم ايتها السيدة ، يا ايتها الاخت والابنـة والزوجـة والام والجدة ، فبالحال ينقلب ذلـك السواد بياضاً والعناء هناءً بنظرة أو نظرتين من عينيك السحريتين وبسمة او بسمتين من شفتيك الجميلتين . فانت اذاً ممثلة الكمال والهنـاء والراحة والأدب والفضيلة في هذا العالم لا الرجل . لذلك نطلب منـك ان تكوني اكثر منه كمالاً لتكوني له قـدوة وجمالاً ومثالاً . ولذلك نقول مع روسو ولو غضب الرجال : « كما يريد النساء يكون الرجال . »

تربية البنات

اذا اردتم اصلاح الهيئة الاجتماعية فاصلحوا النساء

أبنّا سابقاً أهمية مقام المرأة في الهيئة الاجتماعية فثبت معنا يومئذ ان «الرجال يكونون كما تريد النساء» وانه يجب ان يكنّ عظيمات وفاضلات ليكون الرجال عظماء وفضلاء ، فبناءً عليه تكون تربية النساء أهم من تربية الرجال في الهيئة الاجتماعية .

واذا كانت تربية النساء أهم من تربية الرجال فمن دلائل التأخر والانحطاط اهمال تربيتهن واعتبارها أمراً ثانويّاً ، ومن دلائل الاستمرار في هذا التأخر الاستمرار في هذا الاهمال .

وليس من غرضنا الآن تبيان وجوب تربية النساء ، فان ذلك اصبح امراً مسلّماً به ، وانما نود ان نشير الى اصول هذه التربية .

ذلك اننا نرى ان كثيرين يحسبون انه يكفي لتربية النساء حتى الرجال ان تُنشأ المدارس بصرف النظر عن حالتها ، ولذلك تراهم قد نعموا بالاً ورقصوا طرباً كلما فتحوا مدرسة ، وهذا الأمر فاشٍ في مصر والشام وفي كل البلاد الشرقية .

وسببه عـدم معرفة الناس المهم من الأهم في مسائـل التعليم والتربيـة . افترضوا اننا نفتـح في القاهرة او الاسكندرية أو بيروت مائة مدرسة كل يوم ، اي ان يكون مجموع ما نفتحه في السنة ٣٦٥٠٠ مدرسة، ولم يكن في كل هذه المدارس الكثيرة واحدة تعلم تعليماً صحيحاً وتربي تربية صحيحة ، فما هي الفائدة منها كلهـا ؟ فالأمر المهمُّ اذاً في التعليم والتربية حسن اختيـار المعلمين الذين يعرفون كيف يغرسون المبـادىء العظيمة في نفوس الطلبة، وحسن تأليف جـدول الدروس (البروغرام) الذي هو بمثابة « الدفة » من المركب لأنه يوجه عقول الطلبـة ونفوسهم الى حيث يريد، والمعلم هو الربان الذي يدير هذه الدفة .

فعبثاً تحاولون النفع من هذه المدارس كلها ان لم يكن فيها معلمون يفهمون معنى التعليم ومعنى التربية . وهـذا الكلام يُطلق على تربيـة الفتيان والفتيات معاً وقـد أشرنا اليه هنا في عرض هذا البحث تمهيداً لما نريد ان نقوله في هذا الموضوع .

واول ما نقوله ان تربية النساء عندنا ناقصة ويجب سد هذا النقص عاجلاً ، والنقص في امرين : الأول عدم وجود مدارس كافيـة لهنّ وعدم اقبالهنّ على التعلم ، والثاني اصلاح مدارسهنّ الموجودة .

أما الأمر الأول فليس من ينكر اهميته عندنا ، ولذلك أخذ

العاملون بفتح هذه المدارس تدريجاً ، على ان البحث في الأمر الثاني يتناول الأمر الأول، ولذلك نقول :

اولاً : ما هي وظيفة المرأة ؟

الجواب : ان وظيفتها أن تكون زوجة وأمّاً . لهذا خُلقت في هذه الحياة لا لأمر سواه . فتربيتها اذاً يجب ان تعلّمها واجبات الزوجية والأمومة .

وواجبات الزوجية نحصرها في أمرين : الأمر الأول تدبير منزلها ، فانه من الواجب عليها ان لا تدع خادمتها في المنزل تعرف من هذا الفن اكثر منها ، ولا ان تعمل فيه أكثر منها ، ومن دلائل شرف المرأة ونشاطها ومعرفتها واجباتها ان لا تأنف من الأعمال البيتية بل تسرّ بعملها ، كما انه من دلائل صغر العقل وانكار الواجبات التنازل عن تلك الأعمال كلها الى الخدم لغير ضرورة لا بدّ منها . ولا يخلو من فائدة ان تعلم المرأة ان عظمتها متوقفة على نظام منزلها وحسن حاله وحال الساكنين فيه . فان هذا المنزل هو مملكتها الصغيرة ، فماذا يقول العقلاء في ملكة تهمل مملكتها او تتكل على غيرها في ادارتها وتدبيرها ؟

والأمر الثاني ارضاء الزوج وهو أمر لا يقل عن الأول اهمية لان عليه مدار سعادة العائلة ، ونحن الآن تجاه مسألة كبرى

وهي مسألة سلطة الزوج وسلطة الزوجة في العائلة . نعم ان النزاع في هذه السلطة قليل في بلادنا خلافاً لما يحدث في الغرب، ولكنا نجد من الفائدة ان نشير الى آراء فلاسفة الغرب في هذا الموضوع على سبيل المقابلة ، فانهم يقولون ان كل شركة وكل هيئة وكل حكومة يجب ان يكون فيها ادارة تتولى الاهتمام والتدبير ، واعضاء يخضعون لها مقابل اهتمامها وتدبيرها . والزواج شركة فيه الرجل عامل قوي خشن لانه مخلوق للعراك والزحام، والمرأة لطيفة نحيفة عملها في منزلها . الاول يكسب ويقوم بأود العائلة ، والثانية تعطيه هذه العائلة . فمن الحق الطبيعي والناموس الاجتماعي اذاً ان يكون الرجل هو مدير العائلة . واذا كان الرجل هو المدير تحتمت الطاعة على المرأة وصارت سلطته فوق سلطتها . بهذا النظام تقوم المنازل ، والا تنهدم ويتفرق من فيها أيدي سبا .

فاذا كان هذا ما يقوله فلاسفة الغرب والمرأة عندهم ارقى من المرأة عندنا وجب ان يقال مثله على الاقل في حالة منازلنا ، فالرجل اذاً هو صاحب السلطة في الظاهر وان كانت المرأة في الحقيقة هي صاحبة السلطة في الباطن كما مرّ بنا ، فترتب عليها ارضاؤه ليرضيها هو أيضاً .

هذان الواجبان هما أعظم واجبات الزوجة ، بقيت واجبات

الام ، وهي عندنا ثلاثة : الأول تربية أجسام الاولاد ، والثاني تربية عقولهم ونفوسهم ، والثالث القيام بأودهم .

أما الأمر الأول فهو عمل هيجييني محض ، ولذلك يجب ان تُعلَّم الفتاة منذ صغرها في المدارس التي تتعلم فيها كيف يجب ان تكون تربية الأولاد نظريّاً وعمليّاً ، وما أحسن ان يُبنى بإزاء كل مدرسة للبنات ملجأ خيري صغير لاطفال الفقراء لتصرف فيه كل تلميذة ساعة او ساعتين من يومها تتعلم فيهما عملياً تربية الأطفال وتنمي في نفسها الميل الطبيعي الذي فيها لتلك المخلوقات الصغيرة الجميلة التي سيمنحها الله منها .

والأمر الثاني عمل ادبي بسيكولوجي يقتضي معارف واسعة وخبرة وملاحظة ، وهو فن مستقل بنفسه بل هو الفن الأعظم الذي يسمونه فن التربية النفسية .

والأمر الثالث وهو القيام بأود الأولاد يقتضي ان تكون المرأة حين الحاجة نصف رجل ، لتكسب رزق اولادها حين الحاجة .

هذه هي واجبات المرأة في العائلة على وجه الاجمال ، ولكننا نرى هنا بعض السيدات يحملقن ويقلن : ماذا ؟ أهذه أعمالنا فقط ؟ أيبلغ بكم الظلم ان تضعوا على ظهورنا النحيفة كل هذه الأحمال دون ان تأذنوا لنا بشيء يخففها ؟ كلا أيتها

السيدات لا تقلن : «ان تأذنوا لنا» فان ذلك من حقكنّ ، والحق مباح لا يقتضي إذناً . نعم من حقكنّ رئاسة المنزل والعائلة في بعض الاوقات رئاسة عليا تكون فيها سلطتكنّ فوق سلطة الرجل نفسه . بل ان ذلك من واجباتكنّ لانه عمل من الاعمال المنزلية المهمة .

ونريد بهذا العمل تحبيب المنزل الى زائريه .

اي نعم ، ان استقبال الزائرين واجب من الواجبات البيتية الجميلة وعمل لطيف نحيف ، مملوء شوكاً كما انه مملوء زهراً . اما الزهر فان السيدة تتصل بالعالم بواسطته وتتعرف بالناس وترئس مجالس الحديث في القاعات وتكون ملكة المنزل الحقيقية ، ويا حبذا لو كان في الاستطاعة الآن نقل الفصل الجميل الذي كتبه الفيلسوف جول سيمون في كتابه : «المرأة في القرن العشرين» بخصوص هذه المجالس وهذه القاعات ، ولكننا نكتفي بالاشارة ، فانه قال فيه : ان قاعة المرأة هي مصدر التمدن في العالم اذا كانت قاعة حقيقية . والقاعة الحقيقية هي مجالس يأتيها أصدقاء المنزل وجميع من لهم علاقة بالزوج من الرجال وبالمرأة من السيدات فيقطعون أوقاتهم — عفواً ايتها السيدة — لا بلعب الورق ولا بالأزياء ولا بالكلام عن الناس ولكن بالمسائل المفيدة والمفكهة معاً من أدبية وسياسية وعلمية

وفلسفية. فهناك يتنافس الرجال ليظهر كل واحد منهم فضله في هذه الامور الفاضلة أمام النساء، وتتنافس النساء لتظهر كل واحدة منهنّ معرفتها وأدبها وفضلها أمام الرجال ، فتكون القاعات التي على هذا المنوال مدرسة سامية وحكماً عظيماً في الذوق وفي كل الامور . القاعات حينئذ ترقى الى مرتبة الوزراء، القاعات ترفع الى عضوية الاكاديمي ، القاعات تنشر شهرة كل مستحق وتقلص شهرة غير المستحق ، وفيها السيدات ملكات جالسات على عرش الأدب واللطف والظرف ، يرئسن الحديث فيها ، واذا خرج واحد من الرجال في حركة أو اشارة أو كلمة عن حد الأدب أو الحشمة فان الواحدة منهن ، على لطافتها وضخامته وضعفها وقوته ، قادرة على ارجاف قلبه في صدره بكلمة واحدة ونبذه من الهيئة باشارة واحدة .

هذا هو الزهر الذي تجده المرأة في هذه المجالس ، وهو يقتضي ان تكون عارفة بأساليب الحديث تعطي كل ذي حق حقه ولا تترك أحداً يملّ في قاعتها . وهذا أمر لا يجب تعليمه في مدرسة لأنه طبيعي في المرأة كما لا يخفى .

وأما الشوك فانه مؤلم وذو خطر عظيم . ونعني هنا بالشوك تلك التجارب التي تعرض للمرأة في خلال هذه المجالس ، فان كل الناس ليسوا من سوء الحظ أدباء كرام النفوس ، بل ان

كثيرين منهم يتخذون هذه الزيارات والمجالس حبائل للاقتناص، وأنت تعلم مـا هذا الاقتناص . فبإزاء هـذا الخطر العظيم على راحة العائلة وفضيلة المرأة يجب ان تُربى المرأة تربية خصوصية تقيها هذا الخطر ، وذلك بايقافها على أخلاق الرجـال وتدريعها بدروع الفضيلة والدين والادب ومعرفة الواجبات .

والآن هل تمت واجبات المرأة بعد ما ذكرناه منهـا أم بقي منها شيء ؟

اذا كان المراد التفاصيل فقد بقيت أشياء ، لأننا هنـا نشير الى امهات المسائل اشارة فقط ، واذا كان المراد هـذه الامهات فاننا نرى انه لم يبقَ الا مسألة واحـــدة ، ولكنها من أهم المسائل النسائية .

وهذه المسألة هي : هل يجب ان تبقى المرأة داخـل البيت أم يجب ان تخرج منه للعمل كالرجل ؟

فنجيب على الفور ان المرأة قـد خُلقت لتكون زوجـة وامّاً ، زوجة وامّاً قبل كل شيء ، وبعـد ذلك يأتي ما بقي ، ومقام الزوجة والام هو في المنزل ، فعلى المرأة أن تبقى ملازمة منزلها لزيادة النسل وتربيته وغرس الفضائل البيتية فيه لنشرها منه في العالم .

هذه حقيقة يؤيدها جميع أنصار النساء الحقيقيـين وكل محبي

خير الهيئة الاجتماعية ، ولكن لدينا مسألة مهمة تتفرع منها ، وهي : ان امرأة خضعت للناموس الطبيعي والالهي القاضي بان يكون عمل المرأة داخل المنزل وعمل الرجل خارجه ، فتزوجت وأقامت تربي أولادها فرزقت ستة منهم . ثم في يوم من الايام وهي مطمئنة الخاطر باسمة الثغر هبت على منزلها احدى زوابع الاقدار الهائلة السوداء التي طالما هبت على المنازل فكسرت قلوباً ونغصت عيشاً وسوّدت حياة وخربت عماراً فمات زوجها ولم يترك من يعولها ولم يخلف لها سوى أولاد صغار على يديها الضعيفتين ، فماذا تصنع حينئذ ؟

لا خلاف في انه يجب عليها حينئذ ان تشمّر عن ساعد النشاط والهمة ، وبرأس مرفوع عظمة كأنها تناطح الاقدار التي تدلت عليها لسحقها ، تقوم الى العمل بشرفٍ وجدٍّ لتكسب خبزها وخبز اولادها بعرق جبينها . فعلى المرأة اذاً ان تكون مستعدة للعمل اذا انتدبتها العناية الالهية له متى انهدم سندها . ويجب عليها ان تضع هذا الامر دائماً نصب عينيها . وهي مسألة خطيرة توجب الاهتمام بتعليمها عملاً تعمله يكون منطبقاً على استعدادها النسائي وذوقها ومواهبها ، وجميع فلاسفة العالم يجيزون عمل المرأة حتى خروجها من البيت لهذا العمل في حادثة كهذه الحادثة .

هذه أهم واجبات النساء في الهيئة الاجتماعية ، فلننظر الآن ماذا تعلم مدارس البنات منها .

ولكن قبل ذلك لا بد لنا من الاشارة الى اهمية الامور التي مرّت بنا والتصاقها بالنساء دون سواهنّ . فان تدبير المنزل وتلطيف معيشة الزوج فيه وتربية الاولاد التربية البدنية والادبية ورئاسة العائلة في ايام الاستقبالات العائلية لتحبيب المنزل الى الزائرين وادارة الحديث ومراقبته لئلا يُقال فيه ما لا يجب ان يُقال في منزل سيدة — كل هذه أمور من شأن المرأة، والرجل لا يستطيع ان يعمل منها شيئاً. فيا لجهالتنا وتعاستنا اذا أهملنا تعليم المرأة اياها ! يا لشقائنا وشقاء اولادنا من بعدنا اذا تركنا النساء بلا علم ولا أدب ولا فضيلة تقودهن بين صخور هذه الحياة الهائلة ! أتعرفون ما هي المرأة ؟ كلا انكم لا تعرفونها وان كنتم ترونها كل يوم . المرأة مخلوق يمرُّ أمامكم ضعيفاً نحيفاً باسم الثغر او مبهوتاً ولكن بين جنبيه قلباً لا يعرف عمقه الا الله ، ونفساً متسعة أوسع من الفضاء لتناقض الاميال التي فيها . وهذه الاميال تتجاذبها وتتقاذفها كما تتقاذف الامواج في البحر زورقاً صغيراً فوقها . أفتسلمون الزورق للأمواج تذهب به كل مذهب وتطرحه على الصخور فتكسره أم تضعون فيه « دفة » وربانا لايصاله بامن

وسلام الى برّ السلام ؟ وهـذه الدفة وهذا الربان هما المعرفـة والضمير ، المعرفة التي تنير الضمير والضمير الذي يدير المعرفة ، ونعني هنـا بالمعرفة المعرفة الادبية التي تُري المرأة انهـا اذا لم تكن فاضلة فانهـا تكون تعيسة محتقرة مهمـا كانت جميلة ، المعرفة بأصول تربية أولادهـا وتدبير منزلها ، المعرفة بأخـلاق الرجال لارضاء رجلها واجتناب اشراك سيّئي الادب من الرجال ، المعرفة التي تجلو عن النفس غياهب الجهـل وتعلّمها كل فضيلة وتدنيها من أبواب السماء ، المعرفة عدوة الظلمة وصديقة النور ، عدوة التوحش وصديقة التمدن ، عدوة الضلال وصديقة الحقيقة ، عدوة الرذيلة وصديقة الفضيلة ، هذه هي المعرفة التي نعنيها هنا ، فوا أسفـاه عليكم وعلى هيئتكم الاجتماعيـة اذا كنتم لا تعطون النساء هذه المعرفة !

عمر الخيام

ترجمته

يسميه الافرنج عمر الخيّام ويسميه العرب عمر الخيـامي كما رواه بهاءُ الدين العاملي . واسمه الحقيقي شيعة الدين ابو الفتح عمر بن ابراهيم . سمي الخيامي نسبة الى ابيـه الذي كان يصنع الخيام ويبنيها . وقـد ولد في نيسابور سنة ٤٠٨ للهجرة ١٠١٧ للميلاد . وتوفي فيها سنة ٥١٧ هـ ١١٢٣ م اي انـه عمّر فوق المائة سنة . امـا قبره فلا يزال في نيسابور ولكنه لم يُكشف إلا بعد وفاته بمدة طويلة، والذي اكتشفه تلميذ له يُدعى نظامي، ولم يترك له استاذه من علامة يعرفه بها سوى قوله : ان قبري سيكون في مكان تهبُّ عليه ريح الشمال فتدفنه بالورد .

ومما رواه مؤلفو العرب والفرس من ترجمة عمر الخيام في صباه انه تلقى العلم عـلى علماء نيسابور اخصهم الامام الموفق . وكان يتلقى العلم معـه فتى يدعى حسن صباح وهو الذي صار بعد ذلك امـــام الاسمعيلية . وفتى آخر يدعى ابا علي حسن الطوسي وهو الذي رقي بعـــد ذلك الى دست الوزارة للدولة السلجوقية العظيمة وسمي نظام الملك . فهؤلاء الرفـاق الثلاثة

اتفقوا وهم في المدرسة على ان الذي يسبق رفيقيه الى ولاية امر او رفعة شأن يرفع شأن رفيقيه معه . فلما ارتقى نظام الملك الى الوزارة ذكر عهده فاستدعى حسن صباح وقرّبه اليه، ورام تقريب عمر فأبى عمر ذلك لرغبته في الانقطاع الى درس الرياضيات . وسواءٌ صحت هذه الرواية ام لم تصح فمما لا ريب فيه ان ملكشاه الذي كان نظام الملك وزيراً له استدعى عمر الخيام بعد ما سمعه عن علمه وحذقه في الرياضيات واطلاعه على رسالته العربية في علم الجبر وفوّض اليه ادارة مرصد بغداد الفلكي .

وكان عمر قد اكتسب بانصبابه على الدرس والبحث علماً واسعاً وشهرة بعيدة . فلما ولي ادارة مرصد بغداد دون علماءِ وقته ازداد مقامه رفعة عند بني عصره ، وصارت مرتبته عندهم مساوية لمرتبة الشيخ ابن سيناء الفيلسوف المشهور الذي توفي وعمر الخيام ٢٠ عاماً ، فكأنه كان خلفاً له .

وتقسم معارف الخيام الى ثلاثة اقسام : علمه ، وفلسفته ، وشعره .

علمه

اما علمه فحسبنا ان نقول فيه انه كان اول عالم رياضي بحث في مقاييس المكعبات واتخذ لها مقياساً خصوصياً . ورسالته

العربيـة في الجبر كانت مشهورة بين علمـاءِ الشرق حين كانوا يعنون بدرس الرياضيات . وفي اثناء ادارته مرصد بغداد الفلـكي وضع خرائط فلكية سماها زيج ملكشاه نسبة الى هذا السلطان الذي قربه اليه وولاه ادارة المرصد . وهو الذي وضع حساب الوقت واصلح التاريخ الفارسي باضافة سنة كبيسة الى كل اربع سنوات من سني الحساب الفـارسي . ويُعرف هـذا الاصلاح الحسابي بالاصلاح الجلالي نسبة الى جلال الدين وهو لقب لملكشاه. قال المسيو سلمون الذي اعتمدنا عليه في هـذه التفاصيل : ان حساب السنة الجلالية التي اصلحها الخيّـام اصحُ من الحساب الغريغوري الذي وُضع بعد ذلك بخمسة قرون .

ولا يقدح في فضل الخيام ان يوجد في معلومـاته الرياضية والفلكية اغلاط كثيرة، فان العلم كالطفـل ينمو ويشب شيئاً فشيئاً . ولقد مرَّ على الخيام سبعة قرون ونصف قرن والعلم لم يشب عن طوق الصبى بعـد مع جميع مـا وجدوه حديثاً من الاصول الجديدة ،لانه ، كما قال تولستوي في رده على اهل العلم الذين يتكبرون بعلمهم الناقص ، متى صار العلم علماً حقيقياً لم يبقَ لديه شيء مجهولاً . واذا كان الله قـد قدَّر للانسان هذه السعادة والكمال في الارض فذلك لا يكون الا بعـد الوف وعشرات الوف من السنين .

فلسفته وشعره

لا نقصد بقولنا فلسفته انه كان للخيام مذهب فلسفي خاص به ، ولكنا نقصد بذلك رأيه في الواجب والوجود والحياة والآداب والحكمة وما وراء الطبيعة . وهذا بمثابة قولنا انه لم يكن فيلسوفاً بل مفكراً وباحثاً ، لان الفيلسوف لا يُدعى فيلسوفاً الا اذا كان له في تلك الامور مذهب فلسفي خاص به ، وهنا نصل في ترجمة الخيام الى آرائه الدينية .

يظهر ان الخيام لم يستطع ان يضع لعقله شكيمة تشكمه وحداً يقف عنده . ولذلك كان بينه وبين رجال الدين في حياته نزاع شديد . وكان الصوفية اشدهم اضطهاداً له لانه كان يتهكم على تقشفهم وزهدهم في الدنيا تهكماً جارحاً . وكل ديوانه الفارسي رباعيات الخيام مداره على الغزل ووصف الخمر وصفاً غريباً مبهجاً والاستهزاء بالزهد والقناعة والدين ورجاله . واحياناً يجترىء على الالوهية نفسها . واليك بعض الامثلة من رباعياته ، قال ما ترجمته :

سمعت في الفجر صوتاً يصيح : اليّ اليّ يا اهل الشراب والسرور . يا ايها الفتيان المجانين انهضوا واملأوا كأساً اخرى من الخمر قبل ان يملأ القدر كأس حياتكم .

ومنها :

يا رفاقي الاحرار ، اذا متُّ فاغسلوني بخمر حمراء مشرقة ولا تدفنوني الا في ظل كرمةٍ .

ومنها :

اصبحت شارداً عن الدين كدرويش . قبيح المنظر كالبغي . ولم يبقَ لي دين ولا مال ولا امل في جنة .

فلا ريب ان قارىء هذه السطور يظن ان صاحبها سكّير معتوه يهذي بها في ابان نشوته . ولكنه في موضع آخر يسمعه يقول راجعاً الى الله رجوع الضال الى الصراط المستقيم :

ليست هياكل الاصنام والكعبة سوى اماكن للعبادة . وما اصوات الاجراس الا تسبيح بحمد القادر على كل شيء . وكذلك محراب الجامع والكنيسة والهيكل والصليب كلها ليست في الحقيقة الا اشكالاً مختلفة لحمد الله وعبادته .

فهذا القول ليس بقول رجل سكير معتوه يهذي بل هو قول رجل حكيم طار باجنحة الحكمة الى ما فوق عادات البشر وتقاليدهم . ومن العجيب ان يلتقي الخيام في هذا الموضوع بالامام المشهور العارف بالله الشيخ محي الدين بن العربي الذي يقول من قصيدة :

لقد كنتُ قبل اليوم انكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني

وقـد صار قلبي قابلًا كل صورةٍ
فمرعى لغزلان ودير لرهبـانِ

وبيت لأوثانٍ وكعبة طـائفٍ
وألواح توراةٍ ومصحف قرآنِ

ادينُ بدين الحب انـّى توجهت
ركائبـه ، فالدين ديني وايمـاني

قوله فالدين يعني الدين المطلق وهو ما يسميه فلاسفة اوروبا « الديانة الطبيعية ». فرحم الله الامام التقي الشيخ محي الدين على هذا القول الجميـل الذي اظهر بـه تساهلًا تطرب له عظـام الفيلسوف رينان في قبرها . وغفر الله للخيام بهذا كثيراً من سيئاته .

كيف نتصور الخيام

وكان الخيام مشهوراً في بلاد الفرس والعرب بعلم الرياضيات والفلك ، ولكن شهرتـه بالشعر كانت اعظم واوسع . فان بني عصره من الفرس عـلى الخصوص كانوا يلتقطون رباعيـاتـه ويتناقلونهـا من بلد الى بـلد ومن منزل الى منزل فتملأ البلاد سروراً بمـا فيهـا من الدعوة الى لذة الحيـاة والتمتع بالطيبات

والتغزل بالنساء والخمر والهوى النفساني الشديد الذي لم يصفه احد كما وصفه الخيام . وهنا موضع للسؤال عن غرض الخيام من شعره هذا . وقد انقسمت الآراء في ذلك الى ثلاثة : الرأي الاول ان الخيام كان بتغزله في الخمر ودعوته الى ملاذها لا يقصد الا مقاومة الشرائع الدينية . قال المسيو درمستتر المستشرق المشهور في حكمه على الخيام : ان اغاني اوروبا الخمرية ليست الا اغاني جماعة من السكيرين . اما اغاني الفرس الخمرية فهي بمثابة حرب تُشهر على التقاليد الدينية الضاغطة على طبيعة الانسان وحريته وثورة عليها . فشرب الخمر عندهم عبارة عن طلب الحرية . والرأي الثاني وهو رأي كثيرين من الفرس قالوا به بعد وفاة الخيام انه انما كان يتغزل بالخمر الالهية لا خمر الكرمة . فان هذه الخمر عند الصوفية عبارة عن رمز الى الخمرة الالهية . ولكن يكفي لرد هذا الرأي ان الخيام كان والصوفية على طرفي نقيض . وما جاز قوله في ابن الفارض لا يجوز في الخيام . ولقد حكم المسيو باربيه دي مينار المستشرق المشهور في هذه الآراء حكماً مبهماً فقال : سواء كان هذا الكتاب ، يعني رباعيات الخيام ، اعتراضاً على التقاليد الاسلامية او كان ثمرة تصورٍ عليل وخليطاً غريباً من الشك والتهكم والنفي المؤلم فانه من الغريب المدهش ان نجد في بلاد الفرس

منذ القرن الحادي عشر رجالاً سبقوا جوت وهنري هين الى كثير من افكارهما .

فبعد ما تقدم تظهر لنا صورة الخيام بعد ثمانية قرون من وفاته واحدة من اثنتين : فاما انه رجل كبير من رجال العقل والنقد كان يطلب محاربة التقاليد والاوهام ليطلق العقل البشري من عقاله ويهدم النظام الاجتماعي الذي كان في عصره لانه قائم على ظهور الصغار لمنفعة الكبار ، واما انه رجل منتفخ الجسم دموي المزاج شديد الشهوة الى المسكرات وما وراءها ، اتخذ حرية عقله سبيلاً الى اشباع شهواته حين لم يجد وراء هذه الحرية شيئاً . وهذا شأن النفوس الصغيرة التي تطلب تحرير عقولها والانطلاق من قيد المعتقد لتبيح لنفسها المرح في ميدان الملاذ والشهوات في هذه الدنيا . وحينئذ يكون بين الخيام وبين أبي العلاء المعري فيلسوف شعراء العرب وحكيمها من الفرق ما بين التراب والتبر . فان المعري كان يبحث في تحرير عقله ونفسه ليضعهما تحت نير اشد واصعب من نير الدين وهو نير الحكمة وكراهة الشر والتقوى الادبية التي تقوم عند العقلاء المخلصين متى كانت حقيقية مقام الشريعة الدينية والتقوى الدينية .

شهرته في اوروبا واميركا

ولقد عاصر الخيام كثيرين من علماء العرب وفلاسفتهم ،

اشهرهم الفيلسوف ابن سيناء وحجة الاسلام الامام الغزالي وابو العلاء المعري . ولم نعثر في اثناء مطالعتنا انـه التقى بابن سيناء ولا بالمعري. فان ابن سيناء توفي وعمر الخيام ٢٠ سنة كما تقدم، وانما وجدنا ان الخيـام توفي وهو يقرأ الشفاء كتاب ابن سيناء المشهور . امـا المعري فقد كانت وفاته في عام ٤٤٩ للهجرة كما روى ابن خلكان . وحيث ان الخيام ولد في سنة ٤٠٨ فيكون عمره يوم وفاة أبي العلاء ٤١ سنة . وانما ذكرنا هذه التفاصيل للسبب التالي :

اطلع علماء اوروبا منذ سنة ١٧٤٢ للميلاد عـلى معارف الخيام الرياضية والفلكية بمـا نقله عنه المسيو جيرار ميرمان في كتاب له نشره في ليدن . وفي سنة ١٨٥١م نشر سديلو وشاسل وويك ترجمة رسالة الخيام في الجبر وهي خمسة اقسام. وفي سنة ١٨٥٧ نشر المسيو كارسين دي تاسي شرحاً على رباعيات الخيام . وفي سنة ١٨٦٧ نشر المسيو نقولا الرباعيـات نفسها باللغة الفرنسوية . والمسيو نقولا هذا يعتقد في الخيام انـه كابن الفارض متغزل بالخمرة الالهية . وقد قال في مقدمة كتابه انه تلقى هذا الرأي من رجـل تقي من طهران . وفي سنة ١٨٩٨ ترجم تشوفوبسكي الرباعيات الى اللغة الروسية . غير ان الترجمة التي اطارت شهرة الخيام في اوروبا واميركا والعـالم اجمع هي

ترجمة الشاعر الانكليزي فيتس جرالد للرباعيات في سنة ١٨٥٩ . فان جرالد ترجم الرباعيات شعراً انكليزياً وتصرف بالترجمة فاعجب الانكليز والاميركان بشعر الخيام واقبلوا عليه اقبالاً عجيباً لانهم وجدوا فيه ما يعجبهم بالاكثر في شاعريهم بيرون وسوينبر من الآراء السامية في ذم الفساد في الدنيا وسطوة الشر على الخير والقبيح على الجميل فيها . فنال المترجم جرالد بهذه الترجمة شهرة واسعة وراجت كتبه وشعره بواسطتها رواجاً كثيراً . وقد بلغ ببعضهم الاعجاب بالخيام ومترجمه ان اجتمعوا في لندن في سنة ١٨٩٦ وانشأوا نادياً خصوصياً دعوه كلوب العمريين نسبة الى عمر الخيام . ولعلّ هذا الكلوب لا يزال قائماً حتى اليوم . واول ما ظهرت الرباعيات في اوروبا واميركا سمى قراؤها الخيام فولتير الشرق .

ويظهر ان الشهرة التي نالها الخيام في انكلترا على الخصوص قد نال مثلها في اميركا ايضاً . وهنا وصلنا الى السبب الذي جعلنا نقرن اسم الخيام باسم أبي العلاء المعري على ما تقدم . فان احد الكتّاب السوريين المجيدين في اللغة العربية والانكليزية في نيويورك ظهر له ان الخيام مستمدّ كثيراً من افكاره وآرائه الدينية من شعر ابي العلاء المعري ، ولذلك ترجم الى اللغة الانكليزية شيئاً من شعر أبي العلاء بعنوان «رباعيات أبي العلاء»

ونشره في نيويورك . ومن المحتمل ان يكون كل من الخيام وابي العلاء قد روى شعر صاحبه الا اننا لا نجزم بان الخيام قد تحدى المعري واقتبس شعره . والاصح انهما كلاهما كانا يتناولان الهاماتهما من مصدر واحد وهو العقـل وحب الحرية والبحث ، ذلك الحب المشترك بين جميع النفوس وانمـا ينقطع اليه بعضها دون بعض بحسب استعدادها والمؤثرات التي تؤثر فيها .

خطبة لدى شلال نياغرا

اتذكر ايها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعاً لاولئك الهنود المساكين قبل ان يصل اليك البيض ويغتصبوا ارضهم هذه ظلماً وعدواناً ؟ لا ريب في انك تذكره لانك كنت فيه معبودهم. فأولئك البشر السذج المساكين الذين كانوا يصطادون التمساح من مياهك وهم عراة الأبدان تكسو الرياش رؤوسهم وتحمل ايديهم الفؤوس والحراب ويعيشون بالغزو والسطو في قفر يباب كانوا اسعد حالاً وأنعم بالاً من هؤلاء البيض الوافدين على شاطئيك من جميع اقطار الدنيا وقد ملأوهما بالمدن العامرة والمنازل الفاخرة والحدائق الزاهرة والمركبات الكهربائية والسفن البخارية وراحوا يتبخترون بينها تبختر الطاووس بثياب جميلة وشعور صقيلة . وصدّقني ايها الشيخ ان أولئك كانوا اسلم طبعاً وأبعد عن الخبث من هؤلاء .

قد غيّروا ارضك ومن عليها ايها الشيخ ، وهم يظنون انهم حسّنوها وحسّنوك ، وجمّلوها وجمّلوك . وما جمالهم الاّ كجمال المرأة الدميمة : زخرف خارجي وطلاء سطحي . حكّ

هذا الطلاء قليلاً فتجد تحته جيفة منتنة . اظنني غير مخطىءٍ ولا مسيءٍ اليك ايها الشيخ اذا قلت لك انك كنت اجمل منك اليوم حين كان شاطئاك ملجأً للمتوحشين ومعتركاً للأسود والنمورة ومسبحاً الذئاب والتماسيح ومرقصاً للدببة والقردة . فقد كان جمالك يومئذ وحشياً طبيعياً يقشعرُّ له جلد التصوُّر ويرتدُّ عنه طرف الخيال مذعوراً . لقد كان جمالك يومئذ جمالاً حقيقياً ، اما اليوم فقد أسروك كما تؤسر الأسود في الأقفاص وتُجعل فرجة للناس ، فأصبح شاطئاك مرتعاً لذئاب ونمورة ودببة وقردة من جنس جديد لها طباع تلك ولكنها تمشي على قائمتين لا على اربع . ان روحاً مادية هائلة هبّت على العالمين فضعضعت المبادىء وزعزعت الشرائع وسحقت الأديان والآداب وساقت الناس بعصا الحاجة الحديدية الى مبادىء هائلة جعلتهم ذئاباً هائلة . فان الامم الآن تتعادى وتتسلح تأهباً لاقتتال افظع من اقتتال الذئاب . والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها وقويها ضعيفها كما تفعل اسماكك . فروكفلر يملك من المال الف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدون . وهو يستخدمهم باجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم وهم يسكتون ويعملون لأنهم مضطرون . والسلطة في الأرض ضعفت وكادت تنحلّ . فان الناس اسقطوا

العروش والملوك ولكنهم اقاموا مكانهما ملوكاً لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس، فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين الذين يتملّقون الشعوب ويضلّونهم كما كان اخصاء الملوك يتملّقونهم ويضلّونهم. والأفراد يتخاصمون ويتعادون ويفترس بعضهم بعضاً بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم تنازعاً على الرزق والسيادة، وقُبّح هذا الرزق وهذه السيادة اذا كان لا يُبلغ اليهما الاّ بالرجوع الى وحشية وهمجية اشدّ من الوحشية والهمجية الاولى. فاذا كان كل هذا هكذا ايها الشلال فأين الارتقاء الذي يزعمونه؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها ضباع تلك؟ وما هذا القبح الذي يدعونه جمالاً؟ من أجل هذا صرخ حكيم مشهور قائلاً: يا وحوش البرّ وافاعي الغابات، خذيني اليك آكل من طعامك واشرب من مائك، فان صحبتك اهون على الانسان من صحبة الانسان.

انشاء الروايات العربية

كثر في السنوات الأخيرة وضع القصص العربية ، فقلما يمرُّ شهر الا ّ وتصدر بضع منها في البلاد التي فيها مطابع عربية . وهم يسمونها « روايات » وهذا خطأ في التسمية لان الروايات في اللغة الأحاديث المنقولة بالتواتر من فلان عن فلان عن فلان ، فيلزم ان يكون هناك راوٍ ومروي عنه وحديث مروي . فاسمها الحقيقي اذاً قصة لانها عبارة عن احاديث ووقائع يتخيلها المؤلف ويقصها على قرائه . ولكن هذا الخطأ – اذا كان هناك خطأ – كان الأصمعي المشهور اول من وقع فيه في قصة عنترة ، فانه يقول هناك في كل صفحة تقريباً : قال الراوي . وقصة عنترة اكثرها اختراع وابتداع كما هو معلوم . والخطأ أو الاصطلاح الذي يجيزه رجل كالاصمعي يجوز ان يعدّ من الصواب المقبول .

ما يلزم الرواية

على انه لو لم يكن في الروايات التي تنشر في اللغة العربية

غير هذا الخطأ الاصطلاحي الصغير لكان الخطب هيناً . ولكن هناك مآخذ لا يصح السكوت عنها وقد كثر انتشارها . فان كل من امسك قلماً في هذه الأيام يرى نفسه قادراً على وضع رواية لان كل انسان يقدر على قص قصة وسرد حوادث يتصورها . وجميعهم يعلمون ان فن الروايات علم باصول ، ولكنهم يجرؤون مع هذا على وضع هذه الروايات لثلاثة اسباب : الاول انعدام حرية النقد او بعبارة اخرى الجهل بحقيقة هذا الفن للاقدام على نقده . والثاني اعتبار القراء في الشرق الرواية عالماً خيالياً يلهى به ساعة او نصف ساعة فلا يطلبون فيه غير قطع الوقت . والثالث قلة القراء في اللغة العربية، فالروايات التي تظهر فيها لا يستفيد منها مؤلفوها فائدة حقيقية الاّ اذا كانوا اصحاب مكاتب ومطابع صناعتهم التجارة بالكتب . ولذلك قلما ترى كاتباً يجهد قريحته ويكد فكره وينضج رأيه في وضع رواية مهمة لانه يعلم ان الفائدة التي تنشأ عنها لا تعدل التعب الذي يبذل في تأليفها وطبعها ، والجمهور لا يفهم منها سوى قصتها . واذا قيل ان حافظ افندي ابراهيم الشاعر المشهور قد عرب جزءاً صغيراً من رواية الميزرابل فجنى منه على ما قال الف جنيه (٥٠٠٠ ريال) فالجواب ان ما جناه المعرّب من هذه الرواية لم يكن ثمناً للرواية ولا جزاء

تعبه فيها ولكنه كان تنشيطاً له من بعض سراة المصريين الذين دفع بعضهم ثمن النسخة الواحدة ٥٠ جنيهاً (٢٠٠ ريال)

وقد يظن بعضهم ان الروايات الموضوعة تعريباً تسلم من تلك المآخذ التي تقع في الروايات الموضوعة تأليفاً ، لأن شروط الرواية مستوفاة في الروايات الافرنجية الكبرى وما على المعرب الاّ ان ينحو نحوها وينسج بردتها العربية . والحقيقة ان بعض الروايات الموضوعة تعريباً قد تجد فيها من التشويه وفساد الوضع والخرق في الرأي ما لا تجد مثله احياناً في الروايات الموضوعة تأليفاً . وسبب ذلك ان المعرّب يتناول قلمه ويغير على تلك الرواية فيتصرف فيها حذفاً واضافةً فيقطع سلسلة اخلاقها البسيكولوجية ويشوه طبائع اشخاصها وينقص فيها ويزيد عليها من الحوادث ما لو رآه مؤلفها لقطع اذنه وجدع انفه ورضّ ساقيه وبقر بطنه تشويهاً له وتمثيلاً به كما شوّه روايته ومثل بها . وما زلنا نذكر مباحثات كثيرين ممن شهدوا تمثيل رواية « ابن الشعب » في مصر وقولهم في الجرائد وغير الجرائد انهم لم يفهموا اغراض هذه الرواية ومرامي مؤلفها . وحقهم ان يقولوا ذلك لان الذي ينظر في هذا الفن ولا يكون من اهله لا يدرك منه سوى سياق القصة وتفوته اغراضها الحقيقية التي بنيت الرواية عليها وكانت سبباً في انشائها .

وقبل بيان اغراض المؤلف في هذه الرواية نأتي على بيان الصفات اللازمة للروائي ليصح ان يكون ما يكتبه معدوداً في جملة الروايات الحقيقية اي عوالم خيالية تنطبق صفاتها واخلاقها على العوالم الحقيقية انطباقاً كلياً كأنها صورة لها وكأنّ اشخاصها اشخاصها مع زيادة في الصبغة الايدياليستية فيها ليكون غرضها رفع النفوس بدل انحطاطها :

١ً — قوة الاختراع : اولى تلك الصفات قوة الاختراع ، والمراد بها ان تكون مخيلة الكاتب قادرة على اختراع حوادث واخبار تجعل في الرواية فكاهة ولذة . وبهذه القوة تنشأ في الرواية المشاهد والمواقف الكبرى التي تحتك فيها العواطف والاميال والمبادىء احتكاكاً شديداً يستأسر لب القارىء . وكان دماس رأس المبرزين في هذه القوة . الا انه يجب ان لا تتجاوز هذه القوة حد المعقول المقبول والاّ عدّت من سقط المتاع كروايات بونسون دي ترايل . ولما سئل تولستوي منذ مدة عن رأيه في رواية غوركي « الطبقة السفلى » التي جعلت له بين كتّاب اوروبا منزلة سامية اجاب انها جيدة ولكن ينقصها قوة الاختراع . ولكن كثيرين يقولون عن روايات تولستوي نفسه مثل هذا القول لانها انما تمتاز بمبادئها وآرائها وصبغتها الفطرية لا باختراع حوادثها .

٢ — قوة الحركة : والقوة الثانية « قوة الحركة » فان تلك الحوادث التي يجيد المؤلف في اختراعها اذا لم يجعلها متحركة سئم قارئها ومل قراءتها . والحركة كانت مزية ديكنس الكبرى ، فانك تعرف تاريخ اشخاص روايته واخلاقهم ومزاياهم وماضيهم وحاضرهم مما يقوله غيرهم عنهم في الرواية لا مما يقوله المؤلف نفسه . وكل من قرأ رواية لا يجهل انه يفضل قراءة مباحثات اشخاصها على قراءة تعليقات مؤلفها . والاجادة هنا هي في جعل حوادث الرواية منبئة عن اخلاق اشخاصها . وكم من مرة قرأنا فصولاً لكبار نقاد الروايات الفرنسوية يقولون فيها عن فصل في احدى الروايات ان حوادثه غاية في حسن الاختراع ولكنه جامد تنقصه الحركة . وهم يعتبرونها في مقدمة شروط الروايات الجيدة .

٣ — وحدة السياق وتنوع الموضوع : والشرط الثالث في تأليف الرواية وحدة السياق وتنوع الموضوع ، والمراد بوحدة السياق رسم طريق للرواية تبتدىء في أولها وتنتهي في آخرها دون ان تخرج الرواية عنها في اثناء تقلباتها . فكأنها سلك يمدّه رجل بين طرق ضيقة وشوارع واسعة فيوغل فيها ولكن السلك في يده وهو يعرف من اين ابتدأ والى اين ينتهي . والمراد بتنوع الموضوع جعل مواضيع الرواية التي تتفرّع من

ذلك السياق متنوعة متفرعة لاجتناب ملل القارىء اولاً واستيفاء البحث في اخلاق اشخاص الرواية ثانياً . ومن اقوال الفلاسفة ان الطبيعة واحدة من حيث مادتها ونواميسها ولكنها متنوعة من حيث صوَرها واشكالها . وهم يسمون هذا باسم : التنوع في الوحدة . وما يقال في الطبيعة يقال في الرواية ، لان الوحدة المقرونة بالتنوع اساس قوة كل شيء وجماله في العالم ، وبدونهما تكون الحياة مضطربة مضجرة .

٤ً — قوة البسيكولوجيا والسسيولوجيا : يصح ان يقال ان هذه القوة اهم القوات الضرورية للرواية . ولما كانت مواضيع الرواية تشمل جميع الحوادث والحالات التي تطرأ على اشخاصها وعلى الوسط الذي يعيشون فيه كانت الرواية محتاجة الى اكثر اصناف العلوم . فهي تحتاج الى علم الطبيعة لكي تبني آراؤها ومبادئها واخلاق اشخاصها على دعامة علمية اي على النواميس الطبيعية والاَّ كانت نسيج اوهام وخرافات . وتحتاج الى علم تقويم البلدان : الجغرافيا ، لمعرفة البلاد التي يُكتب عنها وطبائع اهلها وهوائها . وتحتاج الى علم التاريخ خصوصاً اذا كانت تاريخية . وقد تحتاج الى سائر العلوم اذا كان لمواضيعها اتصال بها . ولكنها اذا احتاجت الى جميع هذه العلوم احياناً وامكنها الاستغناء عنها جميعها احياناً فهناك علمان

لا يمكنها ان تستغني عنهما اصلاً، وهما علم البسيكولوجيا وعلم السسيولوجيا .

علم البسيكولوجيا ، او علم النفس والاخلاق ، اول شيء يجب على الروائي الاطلاع عليه . وهو قسمان : مصنوع ومطبوع ، اي اكتسابي وغريزي . فالبسيكولوجيا الاكتسابية يستفيدها الكاتب من مصدرين : الاول درس كتب البسيكولوجيا، والثاني مراقبة الطبيعة والبشر لملاحظة اخلاقهم واحوالهم في جميع اطوارهم . وقد كان موليير الروائي المشهور يصرف مدة من وقته كل يوم في الجلوس في دكان حلاق حيث يحتشد الناس عادة من طبقات مختلفة ، وهناك يراقب اخلاقهم ويسمع أحاديثهم . والبسيكولوجيا الغريزية هي قوة غريزية تكون في نفس الدارس يقدر بها على استنباط مكنونات النفوس واستنتاج أخلاقها وتصوير حالاتها دون ان تدري هي بها . وهي هبة من الطبيعة لتلك النفس وان كان بعض علماء الأخلاق يقول ان الدرس والاختبار قد يؤديان اليها . قال بوفون العالم الطبيعي الفرنسوي : ان نبوغ اعاظم الرجال ناشىء عن تعبهم وصبرهم على الدرس . قلنا هذا قول صحيح في العلوم الطبيعية التي لا يستلزم الاكتشاف والاختراع فيها قوة نفسية بل قوة عقلية . واقرب شاهد على ذلك باستور وسبنسر ، وقد

عدّ الفيلسوف نيتشه نفس سبنسر في جملة النفوس الاعتيادية. ولكن علم النفس والأخلاق وعلم الادب والفنون الجميلة لا تقاس بتلك العلوم. فإن ملتن وشكسبير وهيغو ورينان وجوت ووانيير لولا ان الطبيعة خصتهم بنفوس كبيرة جميلة راقية لما قدروا ان يبرزوا شيئاً مما ابرزوه في تآليفهم من آيات الجمال والكمال ولو قطعوا اعمارهم درساً. وهل يصير غير الشاعر شاعراً حقيقياً بمجرد الدرس وقرض الشعر ؟

فالبسيكولوجيا الاكتسابية والغريزية اهم ضروريات الرواية لانها تصون المؤلف من الوقوع في الاغلاط الفاضحة بشأن اخلاق الاشخاص الذين يتكلم عنهم، وتمكنه من تصوير اخلاق بشرية حقيقية منطبقة على اخلاق البشر في الدنيا بسيكولوجياً. وكم من مرة تصفحنا بعض الروايات التي تنشر بالعربية حتى اهمها وأشهرها فرأينا الكاتب يصور اخلاق اشخاصه في أول الرواية تصويراً لا ينطبق على أخلاقهم في آخرها من الجهة البسيكولوجية، فانه مثلاً يجعل مزاج الشخص في البدء عصبياً ثم تراه في الخاتمة يجعله يسلك مسلك ذي مزاج دموي محض. واغرب من هذا انك تراه يجمع في نفس اشخاصه صفات متقابلة متناقضة تتبرأ البسيكولوجيا منها. واحياناً تراه يجعل شخصه يجيب اجوبة لو اطلع عليها اصغر كاتب ملمّ بمبادىء البسيكولوجيا بعد

اطلاعه على الأخلاق التي صوّرها المؤلف له لقال : هذا تخريف لا تأليف . والحوادث المستخرجة من تلك الأخلاق قلما تكون لازمة عنها خارجة منها بحكم البسيكولوجيا وانما هي مجذوبة جذباً لتكون نتيجة لها وما هي بنتيجة لها . وهذه العيوب الفاضحة لا تظهر في الشرق لانها لا تظهر الا لعين الناقد البصير، ولذلك يعجب بعض القراء السذج بتلك الروايات . ولو نشرت في الغرب حيث يميز الجمهور بين الفاسد والصحيح لكانت في جملة الروايات الضعيفة التي لا يلتفت اليها احد من افراد الجمهور الراقي .

وما قلناه في البسيكولوجيا نقوله في السسيولوجيا ، اي علم الاجتماع البشري . وهذا العلم ضروري لمؤلف الرواية لسببين : الاول ان جميع الروايات المهمة في هذا العصر اصبح غرضها اجتماعياً ، واذا كان الفيلسوف اوغست كونت واضع الفلسفة الحسية او الوضعية قد اثبت ببراعة مشهورة قبل تلميذه سبنسر ان جميع العلوم من اكبرها الى أصغرها تنتهي الى السسيولوجيا وان السسيولوجيا هي غرض تلك العلوم فأحرِ بالروايات ان يكون غرضها السسيولوجيا ايضاً، اي البحث في حالات المجتمع البشري لترقيته وانماء قواته النافعة وافناء قواته المضرة : والروايات بعد الصحف او قبلها من اهم ذرائع هذه الترقية ،

بل هي في الشرق اشد تأثيراً من الصحف في هذا الشأن، لان ألوفاً من عامة القراء لا يقرأون الجرائد ولكنهم يقرأون الروايات . فهنا للرواية وظيفة اجتماعية عليا دونها وظيفة جميع الصحف والمدارس والكليات ، لانها المدرسة الأولى للشعب الساذج الجاهل . واننا نشفق من صميم قلبنا على هذا الشعب حين نرى السم الزعاف المدسوس في بعض الروايات العربية التي يقرأها .

٥ً — درس هذا الفن : كما ان العالم لا يصير عالماً الاّ بالدرس والبحث، والصانع لا يصير صانعاً الا بالاكباب على صناعته، فكذلك الروائي لا يصير راوياً الاّ بدرس فنه . ولكن ليس للروايات مدرسة تعلم فيها اصول هذا الفن وانما مدرسته امران : الاول مطالعة روايات اكابر المؤلفين ، والثاني مطالعة كتابات مشاهير نقادي الروايات .

اما الأمر الأول وهو مطالعة روايات اكابر المؤلفين فاظهر دليل على انه المدرسة الحقيقية لمؤلفي الروايات ما كتبه اسكندر ديماس الكبير عن نفسه ، فقد قال ما خلاصته انه لما عقد النية في شبابه على ان يكون مؤلف روايات اخذ يطالع جميع الروايات المشهورة لاكابر المؤلفين فرنسويين وغير فرنسويين ، فصرف وقتاً طويلاً في درسها والتأمل بها وتدبر اغراضها

ومراميها ، فأتى عليها كلها حتى انطبعت في ذهنه اساليبها وطرقها واختلطت في فكره وقائعها ومذاهبها . وبعد ذلك شرع في الكتابة . فكتب الرواية الأولى واحرقها لعدم رضائه عنها . ثم كتب الثانية والثالثة واحرقهما ايضاً . ولما كتب الرابعة دفعها للتمثيل فكان لها دوي في باريس . وقد حضرها احد امراء العائلة المالكة وكان ديماس مستخدماً عنده، فلما ذكر اسم المؤلف للجمهور نهض الأمير من مجلسه ورفع قبعته لمستخدمه ديماس اكراماً وتنشيطاً له .

فالروايات المشهورة الجيدة هي خير مدرسة لمؤلف الروايات لانها خلاصة الاختبار والعلم في هذا الفن . ولكن هذه المطالعة وحدها لا تكفي الراغب في التأليف اذا لم يكب على الأمر الثاني ، درس اقوال نقادي الروايات ، اكبابه عليها .

من تصفح الجرائد الفرنسوية الكبرى وغيرها وجد فيها فصلا مخصوصاً ينشر في كل يوم اثنين في ذيل الجريدة لأحد النقدة المشهورين وموضوعه نقد الروايات التي تمثل في خلال الاسبوع . ورب احد هؤلاء النقدة تدفع له الجريدة اجرة للمقالات الاربع في الشهر راتباً يعدل راتب وزير . وقد كان سارسي ، كبير النقادين في القرن التاسع عشر بعد سنت بوف، يكتب في جريدة الطان ، وكان الممثلون والمؤلفون اذا رأوا في

وجهه وهو في «لوجه» دلائل الاستياء وعدم الرضى ترتعد فرائصهم خوفاً لانه كان على رأيه المعوّل . فدرس كتابات هؤلاء النقدة وغيرهم من نقدة اوروبا من أهم واجبات كاتب الروايات ، لانه يستفيد من كتاباتهم نتيجة اختبارهم هذا الفن واختبار مشاهير النقدة الذين تقدموهم فيه منذ نشأته . وقد كنا نقرأ نقد سارسي في الطان بلذة كبرى ، فلما توفي اصبحنا نقرأ نقد المسيو اميل فاكه في جريدة الديبا وهو من رجال الأكاديمي واشهر النقدة الفرنسويين اليوم . على ان كتب النقد الروائي كثيرة في اللغة الفرنسوية لمن يطلبها . وهي اهم واصح من الكتب غير الفرنسوية لان الفرنسويين ما زالوا متفردين في هذا الفن في اوروبا كلها .

٦ً – عاطفة الجمال : والشرط السادس والأخير من شروط وضع الروايات التزام عاطفة الجمال فيها لان تأثيرها وحلاوتها متوقفان على ذلك . ويدخل في هذا امران : الأول جمال موضوعها ، والثاني جمال سبكها. اما جمال موضوعها فمتوقف على الاجادة في الصفات الخمس التي تقدم بسطها . واما جمال سبكها فالمراد به نسجها بلفظ عذب ومعنى طلي وروح جلي فيجد القارىء حين مطالعتها من الحلاوة والعذوبة ما يستأسر لبه . واذا كان الجفاف والجمود في الانشاء مما يُغتفر

في المباحث العلمية والتـاريخية لان الغرض منها تقرير الحقائـق سواء كان لباسها من نضار او كان عليها اطمار فان ذلك مما لا يُقبل في الروايات اصلاً لان العمدة في الروايات انمـا هي عـلى التأثير في نفس القارىء لجذبه الى مبادئها وشرح صدره بحلاوتها، وهذا الجذب والتأثير لا يتمان الا بعاطفة الجمال .

الروايات وانفعها لنا

بسطنا رأينا في وظيفة الروايات والشروط اللازمة لواضعها فلا نبحث هنا فيها ، وانما نبحث في اهم الروايات وانفعها لنا. ومتى قلنا : اهم الروايات وانفعها لنا ، خرجت منها الروايات التي يُقصد بها التفكهة وقطع الوقت وهي التي يتجر بها اصحاب المكاتب والمطابع الصغيرة ، وانحصر كلامنا في الروايات التي يضعها مؤلفوها لفائدة يقصدونها . وبحثنا هنا في امرين :

الأول — ما هي الفائدة التي نحن اشد احتياجاً اليها في الشرق ؟

والثاني — اي نوع من انواع الروايات يوصلنا الى هذه الفائدة ؟

الامر الاول — كلنا نبحث في داء الشرقيين ودوائه. وكل واحد منا يشخّص العلة من وجه ويصف لها الدواء الذي يراه، فبعضهم يقول : داؤنا السياسة . وغيره يقول : داؤنا الرئاسة . وآخر يقول : داؤنا انحطاط التجارة والصناعة والزراعة وعدم وجود قوة سياسية تحميها في داخل الأمة وفي خارجها . وغيرهم يقول : ان داءنا تعدد عناصرنا ومذاهبنا واستحكام الانقسام

والبغض في نفوسنا. وآخر يقول: لا بل داؤنا تربية مـدارسنا، فان دروسها وتربيتها لا تنطبق على حاجاتنا واخلاقنـا . وآخر يقول: لا بل داؤنا منازعة الاجانب لنا الرزق والسيادة في بلادنا منازعة تحول دون اصلاح شؤوننا .

على ان المتأمل البصير الذي أَلِفَ النظر في اخـلاق الأمم ومعرفة الاسباب التي ترفعها وتحطها يرى بعد إعمال الفكرة في جميع الوجوه التي تقدمت ان هنالـك سبباً فوق جميع تلك الاسباب . ولا مشاحة في ان تلـك الاسباب اسباب حقيقيـة للانحطـاط ولكنهـا في الحقيقةَ اسباب فرعية اي مسببـات لا اسباب . وامـا السبب الذي اشرنا اليه هنا فهـو الأصل الذي تتفرّع منه جميع بلايا المشرق وهو : عدم وجـود الشخصيات الراقية بين ابنائه .

قد يمكن ان ترتفع الاسباب السياسية والدينية . قد يمكن ان تروج التجارة والصناعة والزراعة. قد يمكن ان تتحد عناصر الامة ومذاهبها بتأثير يد قوية تحسن ادارة ازمّة الأحكام . قد يمكن ان تعود اوروبا الى رشدها فتنظر الى بلاد الشرق نظرها الى امم تريد لها الحياة لا الى مستعمرات — كل ذلك قد يمكن ان يقع باعجوبة او بغير اعجوبة . ولكن وقوعه وحـده لا ينيل الشرقيين ما يتمنونه من صيرورة اممهم امماً عزيزة راقية ،

بل يقيمون حينئذ على دورانهم في دائرة الانحطاط التي كانوا يدورون فيها حين كانوا اذلاء ضعفاء فقراء . تراهم يركضون ويجدّون ويجمعون المال اكداساً الى اكداس فتخالهم صاعدين مرتقين، والحقيقة انهم ما زالوا يدورون ضمن تلك الدائرة. انهم كانوا من قبل فقراء منحطين فاصبحوا بعد رواج اعمالهم اغنياء منحطين . وربما زادهم الغنى انحطاطاً لان الثروة تبطر صاحبها اذا لم يكن اهلاً لها فضلاً عن انها تسهل له من اتيان الكبائر والصغائر ما كان عاجزاً عنه قبل الوصول اليها .

بعد ما تقدم تتضح لنا الأسباب في وجود مسائل نشكو ونعجب منها جميعاً . فاننا نعلم بعده لماذا لا نعتبر ابناء امة مجموعة بجامعة يحترمها الجميع ويخدمها الجميع، بل نعتبرها افراداً متفرقين ولكل واحد منهم مصلحة خاصة يسعى اليها . ولماذا يبتسم اكثرنا مزدرين ضاحكين حين يسمعون كلمة المصلحة العمومية . نعلم لماذا الذين اصبحوا منا قادرين على النفع بثروتهم التي حصلوها بطرق مختلفة ليس لهم همّ الاّ التمتع بها بوقاحة وبله دون ان يعملوا شيئاً نافعاً للأمة التي خرجوا منها وتحمل كل اثقالهم . نعلم لماذا حكامنا ورؤساؤنا مدنياً ودينياً متى وُلوا شأناً عمومياً استخدموه لجر النفع الى انفسهم لاعتبارهم الرعية بقرة حلوباً . نعلم لماذا نرى الأقوال عندنا كلها سامية جميلة

والآداب الاجتماعية والسياسية في ارقى مظاهرها في الظاهر ولكن الافعال والبواطن مما يُضحك ويُبكي. نعلم لماذا لا نقدر على الاجتماع والتعاون ففقدنا بذلك اعظم القوات والعوامل في رفع الامم كانشاء الجمعيات المختلفة للعلم والأدب والزراعة والصناعة والتجارة التي عليها مدار الارتقاء في هذا العصر وبدونها لا يقدر الفرد ان يصنع شيئاً عظيماً او يحصل حقاً ضائعاً. حتى قال بعضهم في اوروبا: ان جمعيات العَملة والزراعة والتجارة والصناعة هي التي تسوق اليوم السياسة والساسة في سبيل الارتقاء بقضيب من حديد.

فالدعوة الى ايجاد شخصيات راقية في الشرق وتسهيل السبيل لها هي خير ما يُخدم به الشرق وابناؤه. وهذه الشخصيات الراقية توجد اما في الهيئة الحاكمة وحينئذ ترقي الأمة وتوجد فيها شخصيات راقية طوعاً او كرهاً، واما في الهيئة المحكومة فتلزم الهيئة الحاكمة سبل الرشاد والسداد طوعاً او كرهاً. وارتقاء كل امة انما يقاس بعدد الشخصيات الراقية التي فيها. وهي نتيجة تهذيب النفس والعقل وثمرة اختمار المبادىء الكريمة فيها وتأثير الوسط الذي يعيشان فيه جيلاً بعد جيل. وما الاصلاح الاجتماعي الذي يدوي صداه في آذان الناس في هذا العصر الا هذا الاصلاح.

على ان مقدّمة رواية كهذه المقدمة لا تحتمل هذا البحث وليس هو من مواضيعها ، وانما جرّ الكلام اليه ما قصدناه من بيان المبدإ الاول الذي يحتاج الشرق اليه وبدونه لا تقوم له قائمة لانه يبني على غير اساس . فانفع المطالعات لابناء الشرق ما كان موضوعه الاصلاح الاجتماعي الذي تقدّم ذكره الذي اهم اغراضه ومراميه ايجاد شخصيات راقية .

الامر الثاني — ايّ انواع الروايات توصلنا الى الفائدة التي تقدّم ذكرها في مقدمة الكلام ؟ وهذا هو موضوع هذه المقدمة الحقيقي .

ان في الطبيعة البشرية عادة مألوفة وهي : جر الانسان الحبل لصوبه ، كما يقول العوام . فكل انسان يدعو الى مبدإه ومذهبه ويقبّح رأي غيره . واحياناً يكون هذا التقبيح مضحكاً واحياناً يكون مقبولاً . وانما يكون مضحكاً متى كان المقبّح لا يرى الا بعين واحدة فاما ان يجهل ما في رأي غيره من الصواب واما ان يتجاهله لترويج بضاعة او لاعتقاده حقيقة انه غير صواب . ومذهب « الجامعة » ومبادئها في رواياتها وغير رواياتها معروفة عند قرائها فلا حاجة الى بسطها لتبيان فضل الروايات الاجتماعية عندها على سائر الروايات . ولكنا مع هذا لا نجر الحبل كثيراً لصوبنا لكراهتنا هذا الخطأ الذي قد يقع فيه غيرنا .

ان الروايات التي تنشر الآن في اللغة العربية بعضها موضوع للفكاهة والخلاعة وهذا النوع لا ننظر فيه لانه لا يستحق نظراً، وبعضها معرب والقصد منه ابراز احاسن الروايات الافرنجية وهو نادر جداً وقلما يكون مستوفياً شروط تلك الروايات . وبعضها تاريخي . وهـذا النوع التـاريخي قسمان : فقسم منه يتضمن تاريخ الامم الاوروبية ، وقسم يتضمن تاريخ بعض امم المشرق . اما القسم الاول فلا يستحق النظر ايضاً لاننا في غنى عن تاريخ امم اوروبا ومن يُبرز منه شيئاً عندنا فلا يبرزه الا للفكاهة . وامـا القسم الثاني، وهـو تاريخ بعض امـم المشرق، فالكلام فيه حسن لانه يوقف اهـل ذلك التاريخ على تاريخهم ، ولكن يتوجه على الروايات التاريخية اربعة اعتراضات :

الاعتراض الأول — انها امر كمالي بالنسبة الينا . فان التاريخ لا يخرج عن كونه عبارة عن ذكر ايام مضت وحـوادث خلت، والأمم التي لم تتكون بعد او التي تكونت وانحلت لا يفيدها تاريخها شيئاً سوى تذكيرها بعظمة ساقطة ومجد ذاهب . وهي قبل كل شيء تحتاج الى قوات تنهض بها وتوجـــد الشخصيات الراقية التي اشرنا اليها اضعاف حاجتها الى تاريخهـا . وان عـلم التربية وعلم الاجتماع والنشاط والحماسة للعمل ونصب اغراض شريفة امامها وحثها على السعي اليها وجمع كلمتهـا عليهـا

بتأليف رأي عام منها ، كل هذه مقدمة فيها على جميع علوم التاريخ البشرية والالهية . بل ان اصغر مبادىء الزراعة الاولى واحقر مبادىء الصناعة الأولى مفضلة فيها على جلال التاريخ وعظمته . فالذي يصرف فكرها الى حوادث تاريخها الماضية بكتبه ورواياته قد يفيدها، ولكن فائدتها من ذلك لا تكاد تذكر، لان مثلها حينئذ يكون مثل فقير ذي اطمار يعلق في ثوبه ساعة وسلسلة من نضار . قال برناردين دي سان بيير: اية حاجة بنا الى التاريخ وكتبه واي تأثير للتاريخ في سعادتنا في الأرض، بل اية علاقة بين السعادة وذكر حوادث مضت وأيام خلت ؟ ان تاريخ ما كان لهو تاريخ ما هو كائن وما سيكون . وقال الفيلسوف نيتشه في كتابه « ما وراء الخير والشر » : ان المؤرخين لكثرة تفكيرهم في الماضي وتنقيبهم فيه ينتهون الى ان ينزلوا التاريخ منزلة كل شيء فيصير مثلهم مثل السرطان الذي يمشي الى وراء وهو يحسب انه يمشي الى امام . يريد بذلك انهم يتأخرون وهم يحسبون انهم يتقدّمون .

الاعتراض الثاني – ان الروايات التاريخية هي سمّ للتاريخ قتّال، وذلك لانها تكون مزيجاً من الحوادث المخترعة والحوادث التاريخية، وفي ذلك افساد التاريخ بدل تحقيقه . ولا بأس من ورود التاريخ في الروايات ولكن يجب ان يكون وروده

عرضاً والعمدة تكون على ما في الرواية من الافكار والمبادىء الاجتماعية التي هي غرض الرواية الحقيقي، لان الروايات الخطيرة الهامة في هذا العصر انما هي روايات اجتماعية .

الاعتراض الثالث — ان كتب التاريخ تُكتب للخواص، فالكاتب يجد في نفسه شيئاً من الجرأة على الجهر بما يرى الجهر به حقاً في التاريخ وان ساء بعضهم، لان في افاضل الخواص من كل الأمم ميلاً لمسامحة الكاتب ومعذرته اذا كانوا يعتقدون اخلاصه . اما روايات التاريخ فاكثر اعتمادها في رواجها على العوام والسذج وهؤلاء لا يسامحون ولا يعذرون ، ولذلك يضطر الكاتب الى مجاراتهم ترويجاً لبضاعته فيشوه التاريخ في رواياته بكتمان ما كان الجهر به من اول شروط التاريخ وبتحسين وتزيين امور تزيد السذج تمسكاً باوهامهم واغلاطهم ، خصوصاً اذا كان الكاتب من امة والقراء من امة وعلى الاخص في بلاد الشرق . وبذلك يكون وجود تلك الروايات وعدمها سيين اذ الفائدة الحقيقية في الروايات هي ما فيها من الجرأة والقوة الادبية التي تحمل قراءها على ترك ضعفهم واوهامهم لا زيادة تمسكهم بها .

الاعتراض الرابع — قال المسيو ادوار رود منذ سنتين في مقالة افتتاحية في جريدة الفيغارو في اثناء كلامه عن التاريخ

وكبار المؤرخين الفرنسويين كتييرس وتان ورينان وميشله وغيرهم ما خلاصته : انه يجب على الناس ان يعلموا ان كتب التاريخ التي يقرأونها باللغة الفرنسوية وغير الفرنسوية لا يركن اليها مهما ادعى اصحابها التحقيق والتدقيق ، وذلك لسببين : الاول انهم يتخذون فيها طرق الاستنتاج والقياس وفي اكثر الاحيان يجيء استنتاجهم وقياسهم فاسدين ولذلك ترى آراءهم في التاريخ متخالفة متباينة ينقض بعضها بعضاً ، وكل مؤرخ منهم يكتب التاريخ كما يتراءى له . والثاني ان المصادر التي يعتمدون عليها ويستقون منها اكثرها خطأ لان رواتها اخطأوا في النقل والرواية . وانك لترى المؤرخين الذين عاشوا في الزمن الأخير اذا كتبوا تاريخه اختلفوا في رواية حوادثه وتفسيرها فكيف بهم اذا راموا كتابة تاريخ زمن لم يشهدوه ولا علموا شيئاً عنه غير ما نقلته الكتب لهم ؟ وليس في التاريخ شيء ثابت يمكن الوثوق بصحته غير الحوادث والأرقام والاوراق الرسمية التي وصلت الينا من تلك الأزمنة البعيدة . قلنا : وكل من تصفح كتب المؤرخين العربية والافرنجية ورأى فيها تناقض الآراء والحوادث والارقام لا يسعه الا ان يسلم بصحة هذا القول الذي ساء مؤرخي اوروبا ولكنه صحيح . وما التحقيق في التاريخ خصوصاً التاريخ القديم وبالاخص الشرقي منه الا خرافة

ودعوى لا يقوم عليها دليل. وليس هنالك تاريخ بل آراء مختلفة ، وظيفة الباحث فيها الترجيح بينها لا تحقيقها، وانزال تلك الآراء والحوادث منزلة رفيعة من الاهمية وبذل الانسان قوته ونشاطه وعلمه ووقته فيها انما هو من قبيل الاشتغال بشيء مشكوك به وفائدته لا تعدل التعب فيه . ولذلك قال رينان قبل وفاته : انني آسف لانني صرفت عمري بكتابة تواريخ قلّ أن يتصفحها احد بعدي . قال ذلك مع انه اذا لم يكن في كتبه شيء غير جمال انشائه في كتاباته فان هذا كافٍ كما قال بعض كتّاب الفرنسويين لان يبقى جميع ما كتبه خالداً بين ايدي الناس ومقصداً لطلاب الجمال وحلاوة القلم .

فبعد ما تقدم لا نرى للروايات التاريخية وظيفة سامية بين الروايات ، الاّ اذا كان المقصود بها مجموعة قصص وفكاهات لتسلية الخاطر وترويح النفس في ساعات الفراغ . وظاهرٌ بنفسه بعد هذا ان الوظيفة العليا بين انواع الروايات هي للروايات الاجتماعية الفلسفية .

وقد ذكرنا كل ما تقدم لغرض لم نذكره حتى الآن وهو الدفاع عن الروايات الاجتماعية الفلسفية . فان بعض الكتّاب رأى ان هذه الروايات روايات كمالية لا نحتاج اليها في هذا العصر بل نحتاج الى روايات عملية ، وربما وجد قوله هذا موافقين

ومصدقين له دون ان ينظروا في لباب هذا الموضوع، لان الناس اعتادوا موافقة من يعتقدون فيه اصالة الرأي وصدق النظر . وقد تقدّم اثبات ان الروايات غير الاجتماعية هي الروايات الكمالية .

وقد يستغرب القارىء اهتمامنا بهذا الموضوع الصغير وتخصيص بضع صفحات به . ولكن الكاتب الذي تتبع آراء الشرقيين ومطبوعاتهم بانتباه وامعان لا يعدّه موضوعاً صغيراً بل كبيراً ، وربما يراه اكبر موضوع اذا نظر في ما يلي :

ان كثرة الكتّاب في الشرق وتعدُّد الآراء وتنوُّع اللغات والتربيات قد جمعت في كتبه ومجلاته وجرائده جميع الآراء الفلسفية ومذاهب الادب الكتابي . قد اجتمعت متناقضة متضاربة واصبحت خليطاً من جميع المذاهب في الكرة الارضية، فترى فيها مذاهب سبنسر وكونت ودروين وماركس والقديس توما وافلاطون واريسطو وابيقور ، الكلبي كما يسميه جمال الدين الافغاني ، وفلاسفة الاسكندرية وشوبنهور ونيتشه وقنت وزولا وهيغو ومذاهب القرآن والتلمود والتوراة والانجيل والفيدا ، كلها ، اي كل هذه المذاهب المختلفة ، تراها فيه متجاورة مشتبكة اشتباك الاسل . وليس هذا بالأمر الغريب العجيب ، فان بابل وجدت قبل اليوم على ما جاء في التوراة ، وانما الغريب

العجيب امران : الاول اجتماع المتناقضات من هـذه المذاهب في حيز واحـد دون ان يفطن صاحب هذا الحيز لهـا . والثاني تسفيه صاحب احد هذه المذاهب لمذهب آخر منها من وجه مذهبه وبطرق مذهبه بدل ان يسفهه من الوجه الخاص بهذا المذهب . وغني عن البيان اننا نتكلم هنا عن المذاهب الكتابية والفلسفية والادبية لا المذاهب الدينية . فترى مثلاً بعضهم يكتب يومـاً كأنه على مبادىء كونت صاحب الفلسفة الوضعية السائد روحها اليوم في اوروبا واميركا، ويوماً تراه يكتب كأنه على مبادىء قنت وشوبنهور الايديالبستية . تراه يومـاً ينهج منهج زولا في كتاباته النـاتوراليستية (تقليد الطبيعة) ويومـاً ينهج منهـج فيكتور هيغو في كتابته الرومانتيكية الايديالبستية . وقد قرأنا يوماً في جريدة يومية مصرية كلاماً عن الوطنية قـالت فيه ان الوطنية أثر من آثار الهمجية القديمة، مع ان الرصيفة تدافع عادة أشد دفاع عن جميع المبادىء التي هي عماد الوطنية ودعامتها، وعلة هذا الاختلاط والاختباط عدم وضوح المبادىء بعد لابناء الشرق للاجتماع حولها احزاباً أحزابـاً كل حزب يعرف اصـل مبدإه وفروعه ويجعل خطته الدفاع عنه وعنها لموافقتها مزاجـه واخلاقه وآراءه . واليك مثـالاً لهذا الاختلاط والجهـل باصول المبادىء :

ومصدقين له دون ان ينظروا في لباب هذا الموضوع، لان الناس اعتادوا موافقة من يعتقدون فيه اصالة الرأي وصدق النظر. وقد تقدّم اثبات ان الروايات غير الاجتماعية هي الروايات الكمالية.

وقد يستغرب القارىء اهتمامنا بهذا الموضوع الصغير وتخصيص بضع صفحات به. ولكن الكاتب الذي تتبع آراء الشرقيين ومطبوعاتهم بانتباه وامعان لا يعدّه موضوعاً صغيراً بل كبيراً، وربما يراه اكبر موضوع اذا نظر في ما يلي:

ان كثرة الكتّاب في الشرق وتعدُّد الآراء وتنوُّع اللغات والتربيات قد جمعت في كتبه ومجلاته وجرائده جميع الآراء الفلسفية ومذاهب الادب الكتابي. قد اجتمعت متناقضة متضاربة واصبحت خليطاً من جميع المذاهب في الكرة الارضية، فترى فيها مذاهب سبنسر وكونت ودروين وماركس والقديس توما وافلاطون واريسطو وابيقور، الكابي كما يسميه جمال الدين الافغاني، وفلاسفة الاسكندرية وشوبنهور ونيتشه وقنت وزولا وهيغو ومذاهب القرآن والتلمود والتوراة والانجيل والفيدا، كلها، اي كل هذه المذاهب المختلفة، تراها فيه متجاورة مشتبكة اشتباك الاسل. وليس هذا بالأمر الغريب العجيب، فان بابل وجدت قبل اليوم على ما جاء في التوراة، وانما الغريب

العجيب أمران : الاول اجتماع المتناقضات من هـذه المذاهب في حيز واحـد دون ان يفطن صاحب هذا الحيز لها . والثاني تسفيه صاحب احد هذه المذاهب لمذهب آخر منها من وجه مذهبه وبطرق مذهبه بدل ان يسفهه من الوجه الخاص بهذا المذهب . وغني عن البيان اننا نتكلم هنا عن المذاهب الكتابية والفلسفية والادبية لا المذاهب الدينية . فترى مثلاً بعضهم يكتب يومـاً كأنه على مبادىء كونت صاحب الفلسفة الوضعية السائد روحها اليوم في اوروبا واميركا، ويوماً تراه يكتب كأنه على مبادىء قنت وشوبنهور الايدياليستية . تراه يومـاً ينهج منهج زولا في كتاباته النـاتوراليستية (تقليد الطبيعة) ويومـاً ينهج منهـج فيكتور هيغو في كتابته الرومانتيكية الايدياليستية . وقد قرأنا يوماً في جريدة يومية مصرية كلاماً عن الوطنية قـالت فيه ان الوطنية أثر من آثار الهمجية القديمة، مع ان الرصيفة تدافع عادة أشد دفاع عن جميع المبادىء التي هي عماد الوطنية ودعامتها، وعلة هذا الاختلاط والاختباط عدم وضوح المبادىء بعد لابناء الشرق للاجتماع حولها احزاباً أحزابـاً كل حزب يعرف اصـل مبدإه وفروعه ويجعل خطته الدفاع عنه وعنها لموافقتها مزاجـه واخلاقه وآراءه . واليك مثـالاً لهذا الاختلاط والجهـل باصول المبادىء :

قال بعض الكتّاب ان الروايات الاجتماعية والفلسفية روايات كمالية والاهم منها الروايات العملية . وبعد هذا القول قال ان احوالنا تحتاج الى اصلاح ، وخير سبل الاصلاح تقبيح الرذائل الشائعة كالكذب والخداع والمجاملة والمقامرة والمسكر والبورصة وغيرها من الرذائل والمنكرات التي نئن تحت اعبائها.

فالذي وقف على اصول المبادىء الفلسفية والادب الكتابي يستغرب هذا القول ، لانه يعلم ان الادب الكتابي في الفلسفة نوعان : ايدياليست (مثالي) وريااليست (واقعي) . فالادب الايديااليستي مشتق من قوى النفس والعقل ، والادب الريااليستي او الناتوراليستي مشتق من الطبيعة . الاول يعتمد في التأثير والاصلاح على قوى نفس الانسان ويقدّم تأثيرها على كل تأثير ، والثاني يعتمد على الطبيعة وقواتها وتقليدها . الاول يقول : صوروا ما هو اسمى من الطبيعة لرفع النفوس به . والثاني يقول : ان ما هو اسمى من الطبيعة خيالي وهمي او كمالي ، وحسبنا الطبيعة وتقليدها وتصويرها لان فوائدها عملية . فاذا عدتَ الآن الى الاعتراض الذي تقدّم وجدت ان المعترض يقول ان المذهب الايديااليستي امر كمالي . وهو اعتراض جائز مثلاً لمن كان ريااليستياً كالفيلسوف نيتشه الذي ادمى الايديااليست نقداً وتهكماً . ولكن متى سفّه المعترض المذهب الايديااليستي

ذلك التسفيه ثم عاد فقال الفوا في اجتناب الكذب والخداع وما اشبههما من النقائص الاجتماعية فانه يخلط بين المبادىء دون ان يشعر . ذلك لان توقع الاصلاح من محاربة الكذب والخداع وما اشبههما هو من مذهب الايدياليست ، ومذهب الرياليست يتساهل احياناً مع الكذب والخداع وقد قال نيتشه انهما حق للضعيف ومن ملازمات العمران . فالنتيجة التي تخرج من هذا هي ان المعترض يسفه من جهةٍ مذهب الايدياليست لانه خيالي وهمي في رأيه ، ومن جهة اخرى يدعو الى اصلاح البشر بـه . وهو منتهى السذاجة والجهل بالاصول .

وليس غرضنا في هـذا الفصل شرح مذهب الايدياليستيين والرياليستيين واظهـار آثارهما في المجتمع البشري ومبلغ تأثير كل منهما في اصلاح الارض ، فان ذلك بحث فلسفي طويل متشعب الطرق كثير الفروع . وسنغتنم اول فرصة لابداء رأينا في هذين المذهبين . انما غرضنا هنا ان نوجه الانظار الى وجوب فصل المبادىء في الشرق وترتيبهـا ووضع كل واحد منهـا في مرتبته وبابه تسهيلاً للنظر فيها واختيار افضلها لنا ، فضلاً عن ان الخلط بينها دليل على الجهل بها ، والجهل بهـا دليل على انحطاط العلم عندنا وكونه لا يزال في طفوليته .

سوريا حلقة التمدن

جمع صاحب كتاب التمدن الاسلامي اسباب عظمة العرب واتساع فتوحهم في احد عشر سبباً وهي : نشاطهم وخفة احمالهم ، اعتقادهم بالقضاء والقدر وان الانسان لا يموت الا اذا جاء اجله ، مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال ، نبوغ رجال عظام في صدر الاسلام ، صبرهم ومطاولتهم في الحرب ، انجادهم بعضهم بعضاً ، حفظهم خط الرجعة ، واقعة اليرموك التي شددت عزائمهم ، انقسام الروم والفرس يومئذ وفساد اخلاقهم ، انحياز اليهود اليهم ، عدلهم ورفقهم وزهدهم .

وبديهي ان هنالك اسباباً اعظم من هذه الاسباب لم ينتبه المؤلف اليها ، منها مسألة التوحيد التي كانت كبرق خلب تخطف الابصار . ومنها ، وهو اهمها كلها ، النفس السامية العربية التي صاغتها عوامل بلاد العرب الطبيعية وغير الطبيعية . ولو ان امة غير امة العرب اجتمعت فيها كل الاسباب التي ذكرها المؤلف لما استطاعت ان تقوم بما قامت امة العرب به اذا لم تكن سامية . ولذلك قال رينان وجميع المستشرقين ان

النسل الذي صدر عنه الدين والحرية والنزاهة والاخلاص وتصورات النفس الغزلية انما هو نسل هنود اوروبا والساميين. اما الساميون فهم جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من اللغات التي يسمونها سامية وهي العربية والسريانية والعبرانية والآرامية والكلدانية والآشورية والحميرية. فمن هذين النسلين هنود اوروبا والساميين خرج تمدن العالم واديانه الراقية. اما هنود اوروبا فقد كانت ثمار عقولهم تصورات رقيقة وحناناً وعواطف جدية اي عواطف من ألزم لوازم الآداب والدين، ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم الدينية القديمة، وانما خرج من الساميين الذين كان لهم في ذلك فضل عظيم على الانسانية. فالذين اعدوا اذاً سبيل الدين للانسانية في العالم هم اولئك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته، يعني رينان بذلك القبائل الاسرائيلية التي خرجت منها الديانة اليهودية والديانة المسيحية، والقبائل العربية التي خرجت منها الديانة الاسلامية.

نقول وكما ان الساميين، اي الشرقيين في عرفنا اليوم، كان لهم فضل عظيم على الانسانية من حيث خروج الاديان منهم كذلك كان لهم فضل عظيم عليها من حيث تعزيز الصناعة

والتجارة وانتشار الفنون والمعارف . ولا ريب ان القارىء قد ادرك من هذا القول اننا لا نعني به احداً غير الفينيقيين .

والذي اخطر هذا الموضوع في بالنا كتاب علمي كبير نشره العالم الفرنسوي فيكتور برار وعنوانه : الفينيقيون والاوديسه . وقد قصد به الكاتب امرين : الاول تأييد ما قاله سترابون من ان هوميروس الشاعر اليوناني المشهور اعتمد على الفينيقيين في وصف البلاد الخارجية التي وصفها في قصيدته الاوديسه ، فهم اذاً اساتذته . والثاني ان حوادث الاوديسه المبنية على نكبات البطل اليوناني عولس ابي تلماك بعد خروجه من جزيرة كاليبسو ليست بحوادث خرافية . وقد ذكر المؤلف انه اكتشف البلاد التي حدثت فيها تلك النكبات ونشر رسومها .

اما الامر الاول فيؤيده المؤلف باقامة عدة ادلة على ان الفينيقيين هم الذين مدّنوا اليونان وعلى الخصوص جهات الارخبيل ، وذلك ان قرصان اليونان كانوا يخطفون الفينيقيين ، اي سكان صور وصيدا وغيرهما من الثغور الفينيقية السورية ، ويأخذونهم الى بلادهم فينشرون فيها الميل الى الفنون والتجارة . واليهم ، اي الى هؤلاء الاسرى الذين نبغوا في اليونان وعاشوا فيها ، ينسب المؤلف نفائس الفنون اليونانية التي ظهرت في النهضة اليونانية . وعلى ذلك فان فينيقية او سوريا تكون الوصلة الكبرى بين

التمدن القديم والتمدن اليوناني الذي تلاه . بل انها تكون استاذ اليونان واصل نهضتها .

ولا يخفى ان هذا القول لا يُرضي انصار التمدن اليوناني لانه ينفي عن النفس اليونانيـة صفة الابداع ، ولذلك اكثروا من الصياح بالمؤلف واستهزأوا بـه . ولكن الصياح والاستهزاء لا ينقضان الدليل والبرهان .

واما اثبات صحة الحوادث التي نسبها هوميروس الى عولس في الاوديسه فلسنا في صدده الآن . ونكتفي بان نقول ان المؤلف ذكر في كتابـه ان جزيرة الالاهة كاليبسو التي سافر منهـا عولس هي جزيرة واقعة في المدخل الشرقي لجبـل طارق وتُدعى اليوم جزيرة بريجيل ، وان الشاطىء الذي قُذف عليـه عولس بعد سفره منها هو شاطىء جزيرة كورفو في بلاد اليونان . وقد وصف المؤلف مواقع هذه الجزيرة التي زارها بنفسه وصفاً ينطبق على وصف هوميروس .

ولكن اذا ثبت ان هوميروس لم يكن قـادراً من تلقـاء نفسه على وصف البلاد البعيدة التي وصفها وانـه اقتبس وصفها من الفينيقيين الذين كانوا يعيشون في بلاد اليونان بقي علينا ان نعلم السبب الذي اوجب على الفينيقيين تعليمه اياه وجعله يرضى بنظمه ، فنقول ان هنالك واحداً من ثلاثة : فاما ان هوميروس

اراد بذلك خدمة بني جنسه اليونان وافادتهم بمعلوماته الجديدة . واما انه اراد باغراء من الفينيقيين تحذير قومه اليونان من اخطار السفر التي اكثر من ذكرها ووصفها في قصيدته صرفاً لهم عن البحر ليبقى الفينيقيون منفردين فيه فلا يزاحمهم اليونان عليه . واما ان الفينيقيين راموا اتخاذ شعره البليغ بمثابة اعلان لبضائعهم وفضائلهم . وفي هذه الحالة تكون الاوديسه ، تلك القصيدة البليغة السامية التي يقتبس منها شعراء الافرنج افكارهم واساليبهم ، عبارة عن اعلان تجاري ، ويكون الفينيقيون اول من اخترع هذه الاعلانات البليغة التي كثرت في هذا الزمان .

واذ ذكرنا الحلقة الفينيقية التي ربطت التمدن القديم بالتمدن اليوناني وكانت اساساً له فاننا نذكر معها مدنية اخرى كانت سوريا حلقة لها ايضاً ، واليك البيان :

لما دبّ سوس الفناء في التمدن اليوناني والروماني على اثر الانقسامات والمشاحنات الدينية التي قامت بين اهله قامت في العالم دولة جديدة لتجديد شباب العالم وهي دولة العرب . فقيامها كان طبقاً للنظام الازلي الذي تديره اليد الازلية . وكان روم القسطنطينية وروم رومة في تلك الازمان في نزاع شديد بشأن طبيعتي المسيح الالهية والبشرية . ففي اوائل القرن الخامس اظهر نسطوريوس بطريرك القسطنطينية رأيه في ان طبيعة المسيح

البشرية منفصلة عن طبيعته الالهية، ولذلك لا يجوز تسمية العذراء مريم والدة الاله بل يجب ان تُدعى والدة يسوع ، فعارضه في ذلك البطريرك الاسكندري واسقف رومة لاغراض خصوصية غير الاغراض الدينية مما يطول شرحه . ثم اجتمع مجمع في افسس وقرر تكفير نسطوريوس وعزله من غير ان يحضر هذا المجمع اساقفة سوريا والشرق لانهم كانوا من حزب نسطوريوس وكان انصار البطريرك الاسكندري يخشون من ارتفاع كلمتهم. ولما عُزل نسطوريوس ونُفي الى وطنه سوريا تفرق حزبه السوري في انحاء آسيا كلها وراح رجاله ينشرون معارفهم اليونانية وعقائدهم في جميع الاقطار، فبلغوا الهند والصين وبلاد العرب . وقد عرف صاحب الشريعة الاسلامية وابو بكر الصدّيق بعضاً منهم .

ولما قويت شوكة العرب كانوا يحمون هؤلاء النساطرة لان اعتقادهم بالسيد المسيح كان قريباً من اعتقاد المسلمين به من بعض الوجوه . وربما كان يومئذ بين الاعتقادين شيء من العلاقة . فكان النساطرة يستخرجون علوم اليونان ومعارفهم وهم آمنون في حمى الاسلام وراتعون في قصور خلفائه . وهم الذين كانوا اول من ترجم الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية . وهم الذين أنشأوا في مدينة ادسيس الواقعة في ما بين النهرين المدرسة

المشهورة التي خرج منها العلماء للنهضة البغدادية . وقد ذكر مؤرخو العرب هؤلاء النساطرة فقالوا انهم قوم يحكمون في كل شيء بعقولهم ويفحصون كل الآراء بانفسهم . وقد ذكرنا في ترجمة ابن رشد ان هذا الفيلسوف لم يعرف فلسفة اريسطو إلا من الكتب التي ترجموها . فكأنه كُتب لسوريا ان تكون حلقة ثانية بين مدنية اليونان ومدنية العرب كما كانت حلقة بين المدنية القديمة والمدنية اليونانية .

ابن رشد وفلسفته

بين الفلاسفة مسألة يسمونها مسألة انكار العدالة في العالم أو اثباتها . فمنهم فريق يرى ان العالم انما هو عبارة عن بطون تدفع وارض تبلع فلا نظام ولا ناموس وانما الحياة عراك شديد بين البشر يتغلب فيه القوي ويسقط الضعيف . وليست الفضيلة والخير والصلاح شرطاً للانتصار في هذا العراك وانما القوة هي الشرط الوحيد . وبناءً على ذلك كثيراً ما تسلّحت الرذيلة بالقوة فانتصرت اعظم انتصار وانكسرت امامها الفضيلة اقبح انكسار . وكفى دليلا على ذلك سقراط واريستيدس وابن الانسان سيد البشر . أفما سقى الاثينيون سقراط سماً لانه جهر بحقيقة من ابسط الحقائق وهي وحدانية الخالق ؟ اما اهانوا اريستيدس مثال الصدق والاستقامة ونفوه من وطنه من اجل صدقه ؟ فهل كانت الفضيلة تسقط هذا السقوط وتُداس بهذه الوقاحة لو كان في الكون عدالة ساهرة ؟

فيردّ على ذلك انصار العدالة بقولهم وهم يبتسمون : اتحسبون ان سقراط كان مغلوباً مع الاثينيين ؟ كلا بل انه انتصر عليهم

وان كان قد شرب السمّ من ايديهم . ذلك ان الانتصار الحقيقي لا يتوقف على ظلم ساعة ولا على عذاب يوم . قال الفيلسوف بلوتين : ممّ تشكو ايها الانسان ؟ امن ظلامة ؟ ولكن ما تأثير الظلامة في النفس الخالدة ؟ فظلامة الاثينيين لم تضر سقراط بل عاد شرها عليهم . ذلك ان كل فرد من افراد الانسانية منذ تلك الحادثة الفظيعة الى هذه الايام لا يُذكر على مسمع منه اسم سقراط واسم الاثينيين الا ويعظّم الحكيم سقراط ويحقّر اولئك الذين سمموه . اذاً فمن الغالب ومن المغلوب من الفريقين ؟ أليس الغالب ذلك الذي يعيش ذكره مبجلاً معظماً في نفوس بني البشر الى آخر القرون والاجيال ؟ وهل تريدون دليلاً افضل من هذا على انه ليس بالامكان ابدع مما كان ، كما قال الامام الغزالي ، وعلى وجود عقل عام يدبر الكون بمبادىء ونواميس ثابتة ويجعل النصر فيه للفضيلة دائماً ولو بعد حين ؟

اذا رمتم دليلاً آخر فاليكم ابن رشد فيلسوف الاسلام العظيم ، فان معاصريه كفروه ومنعوا كتبه واهانوه ونفوه . ولكن اي شأن لهذا كله في نظر العاقل الحكيم الذي ينظر الى جواهر الامور لا الى اعراضها ؟ الا ينسى ابن رُشد كل تلك المحن الصغيرة اذا تسنى له ان يشاهد من مكانه الابدي ما يقوله البشر عنه اليوم في اللغة العربية وغيرها ؟

واليك ترجمة هذا الفيلسوف العربي الذي يعتقد الافرنج انه الفيلسوف الحقيقي الوحيد الذي نبغ في الاسلام :

ترجمته

هو ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد، وكانت اسرته من اكبر الاسر في الاندلس (اسبانيا) وقد ولي ابوه وجده منصب قاضي القضاة فيها . وكانت ولادة صاحب الترجمة في قرطبة في سنة ٥٢٠ هجرية ١١٢٦ مسيحية وتوفي في بلاد المغرب (مراكش) في ٩ صفر من سنة ٥٩٥ هجرية وعمره ٧٥ سنة .

وقد تلقى ابن رشد في صغره علم الكلام وهو في الدين الاسلامي بمنزلة اللاهوت في الدين المسيحي . غير ان عقله المطبوع على طلب الحقيقة وحب التوسع في العلم لم يكتفِ بذلك فاقبل برغبة شديدة ونشاط عظيم على درس الطب والرياضيات والفلسفة . وكانت مدارس قرطبة والاندلس في ذلك الزمان مصابيح علم وهدى لجميع الامم .

ولما شبَّ ابن رشد جُعِل قاضياً في قرطبة . وكانت دولة الموحدين قد اسقطت دولة المرابطين في مدة شبابه وحلت محلها .

وكان ابن طفيل صديق ابن رشد من اعظم اخصاء الدولة الغالبة، فقرب صديقه من الخليفة يوسف الذي خلف الخليفة عبد المؤمن. وفي سنة ٥٤٨ هجرية عبر ابن رشد البحر بين الاندلس وبلاد المغرب (مراكش) واقام فيها مساعداً على انشاء مدارسها وانارة مصابيح العلم فيها. وفي عام ٥٦٥ ه جُعل قاضياً لاشبيلية في الاندلس. وفي عام ٥٦٧ ه عاد الى قرطبة. ثم سافر الى بلاد المغرب في عام ١١٨٢ وقد استدعاه اليها الخليفة يوسف وجعله طبيبه الخاص مكان ابن طفيل. ثم رقاه الى منصب قاضي القضاة في قرطبة عاصمة الاندلس، فتربع ابن رشد في كرسي ابيه وجده.

تكفيره

وفي عام ١١٨٤ للميلاد ولي يعقوب المنصور بالله الخلافة في الاندلس خلفاً ليوسف ابيه فبلغ صاحب الترجمة لديه اسمى منزلة في بدء حكمه. واصبح في ذلك الزمان سلطان العقول والافكار لا رأي إلا رأيه ولا قول إلا قوله. ولكنه مكتوب لكل اصحاب العقول الذين يمتازون عن البله والبلداء واصحاب الدعوى في هذا العالم ان يتكاثر حسادهم لسبب ولغير سبب. ولذلك حسد ابنَ رشد جماعةٌ من الذين قصروا عن شق غباره وبلوغ منزلته، فوشوا به لدى الخليفة يعقوب المنصور بانه يجحد

القرآن ويعرض بالخلافـة وينشط الفلسفة وعلوم المتقدمين بدلاً من الدين الاسلامي . ولا غرابة في هذه التهمة بعد انصراف ابن رشد الى الفلسفة وطلبه الحقيقة من طريق العقل في زمن كذلك الزمن ، وانما الغرابة ان لا تحدث يومئذ تهم كهذه التهمة . ولذلك فكل فيلسوف اهل لان يلقب بهذا اللقب يحتمل هذا العدوان من المعاصرة احتماله امراً طبيعياً لا مفر منه ولا مهرب . وبناءً عـلى ذلك يكون اولئك الكبراء العظماء الذين عُذبوا في بدء نشأة العلم في كل امة لاعتقادهم اعتقادات تناقض اعتقاد بسطائها بمثابة شهداء يحق لهم علينا اليوم كل اكرام واحترام لانهم كانوا طليعة جيش العلم الذي لم ينتصر الا بجهـادهم وبدمـائهم ، حتى كأنهم ما خُلقوا الا لتلقى على ظهورهم احمال العلم والانسانية كلها .

نصبه امام الجامع للبصق عليه

اما الخليفة يعقوب المنصور فانه لمـا رُفعت اليه الشكوى على ابن رشد امر فاجتمع لديه اعظم فقهاء قرطبة وقضاتها . ثم طرح عليهم الخليفة قضية ابن رشد وقـد حضر ابن رشد نفسه هذا الاجتماع . فقرر الفقهاء ان تعاليمه كفر محض ولعنوا من يقرأها وقضوا عـلى صاحبها بالنفي من قرطبة . ومن الاسف

العظيم ان لا يكون لدينا تفصيل هذه الجلسة التي جرت محاكمة الفيلسوف فيها . فنُفي ابن رشد الى لوسنه وهي بلدة قريبة من قرطبة وقضي عليه بالتزامها وعدم الخروج منها . وهنا اختلفت الروايات ، فمن قائل ان ابن رشد اقام فيها حتى رحل الخليفة يعقوب المنصور الى بلاد المغرب ، ومن قائل انه سار منها يوم الخلاص من الاسر فقُبض عليه في فاس واوقف على باب الجامع ليبصق عليه الناس في دخولهم وخروجهم . فاذا كان هذا الخبر صحيحاً فقد اهينت الفلسفة والحكمة والعقل في شخص ابن رشد أقبح اهانة ، وذلك مما يجعل له حقاً جديداً في الكرامة والاحترام فوق حقه الفلسفي الكبير .

ولسنا نزعم انه يجوز لكل واحد من العلماء ان يضع مذهباً جديداً ويدعو الناس اليه وان كان مناقضاً لمعتقدات الناس ، وهادماً لاساسها . كلا فان ذلك امر لا يخلو من مضرة من بعض الوجوه وان كان نافعاً من وجوه اخرى . ولكن كما انه لا يجوز للعالم الجالس في غرفته وراء مائدته وهو يبحث باخلاص وامعان عن الحقيقة او ما يظنه حقيقة ، ان يدعو الناس الى ترك ما في ايديهم للتمسك بالامر الجديد الذي يظن انه قد وجده ويحقّر كل من لا يعتقد معتقده ، كذلك لا يجوز للناس ان يمنعوا العقل البشري من الانطلاق في جو الفكر لطلب الحقيقة والعلم

والنور بالآلات العقلية التي منحه الله اياها دون تضييق على هذه الآلات او ايقافها في مجراها . ولا ريب ان الامر الاول ضرب من الغرور والطياشة اذ ليس في العالم احد قادراً على اثبات ان الحقيقة في يده ومعتقده . ولذلك يجب على كل واحد من البشر ان يحتمل رأي غيره وان كان مخالفاً لرأيه . وهذا وا اسفاه لقصور العقل البشري وضيق ذراعه عن الاحاطة بفضاءِ الاسرار الالهية التي امامه . ولكن اذا كان الامر الاول غروراً وطياشة فالامر الثاني ضرب من ضروب الكفر بنعم الله تعالى لانه يقتضي اطفاء نور العقل الذي خلقه الله ووضعه في الانسان كما توضع المنائر على شواطىء البحار . افتطفئون المنارة في الانسان ثم تقولون له سر واعتقد انك سائر في الطريق القويم ؟

عوده الى مقامه

وليس يسوءُ الحقَّ شيءٌ مثل اتخاذ الهوى مركباً في امور مقدسة كهذه الامور . فانه اذا كان كل معارض ومعترض يعارض ويعترض دفاعاً عن مبادىء مقررة في نفسه وهو يقوم بهذا الدفاع ولا غرض له غير طلب الحقيقة المجردة فهذه المعارضة وهذا الاعتراض امر مقدس يجب على كل عاقل ان يحترمه . ولكن من سوءِ حظ البشر انهم يقدمون الهوى دائماً على الحق .

وقلما تجد شهيداً من شهداء العلم الذين بذلوا في سبيله كل مرتخص وغال الا وترى انـه كان للحسد اليد الطولى في معـارضته واضطهاده . والذي يدل احسن دلالة على ان تكفير الفيلسوف ابن رشد كان من هذا القبيل ان المنصور لما عاد من قرطبة الى بلاد المغرب (مراكش) ووجد نفسه بعيداً عن اعداء ابن رشد الذين اثروا فيه فجعلوه يكفره وينفيه ذكر فضل هذا الفيلسوف الكبير وعلمه وسعة صدره وحسن اخلاقه فامر من المغرب بالغاء الحكم الذي حُكم بـه عليه وباباحة الفلسفة والاذن للنـاس في الاشتغال بهـا . فعادت الى فيلسوف الاندلس كرامته ومنزلته، ولكنه لم يتمتع بهما بعد ذلك مدة طويلة اذ ادركته المنية في بلاد المغرب فدفن فيها . وبعد ذلك نُقلت جثته الى قرطبة التي تفتخر به لانها مسقط رأسه .

مؤلفاته

كان ابن رشد مولعاً بالتأليف والمطالعة ولم يكن له لذة في غيرهما . ولقد تمنى ان ينقطع عن منصبه اليهما لو ان ذلك كان في امكانه . وكان يقول في كتبه انـه يشبه رجلا اتصلت النار بمنزله فاخذ يخرج منه اهم اثاثه شيئاً فشيئاً .

اما مؤلفـاته فهي كثيرة يضيق المقام دون تعدادها كلها .

فنكتفي اذاً بذكر كتبه الجليلة التي جعلت له في عالم الفلسفة والعلم هذه الشهرة الطائرة . وهذه الكتب قسمان : قسم في الطب وقسم في الفلسفة . فشهرته في العالم مبنية اذاً على هاتين الصناعتين : الطب والفلسفة . على انه قد ألف ايضاً في علم الكلام والصرف والفقه وعلم الفلك عدة مؤلفات ، منها في علم الفلك مختصر المجسطي، وفي الفقه كتاب دروس كاملة، وفي الطب الكليات وهو ستة اجزاء تتضمن دروساً كاملة في صناعة الطب، ولقد بقي لهذا الكتاب اهمية كبرى مدة طويلة . على ان اهم كتبه كلها شروح اريسطو التي بلغ بها مؤلفها اسمى منزلة .

شرحه اريسطو

ولقد قلنا مؤلفها ولم نقل مترجمها لان ابن رشد لم يترجم فلسفة اريسطو ولكنه شرحها شرحاً . ولقد اخطأ من قال انه ترجمها لان ابن رشد لم يكن يحسن اللغة اليونانية فضلاً عن انه كان في دار الخلافة في الاندلس اطباء من النساطرة الذين كانوا قد ترجموا كتب اريسطو الى اللغة العربية . وكان كثيرون من علماء السريان والكلدان قد ترجموا هذه الكتب الى العربية قبل عصر ابن رشد بثلاثة قرون . فلا ريب ان فيلسوف الاندلس قد اعتمد في شرح اريسطو استاذه واستاذ فلاسفة العالم الى عهد باكون على هؤلاء المترجمين .

وقد شرح ابن رشد فلسفة اريسطو بطرق ثلاث : الاولى الشرح الوجيز . والثانية الشرح المتوسط او الواسطة . والثالثة الشرح الكامل او المطول .

اما الشرح الصغير فان ابن رشد يتناول فيه مواضيع اريسطو ويؤلف فيها من عند نفسه مقالات في غاية الاهمية . فهو في هذا الكتاب مؤلف لا شارح . واما الشرح المتوسط فانه يذكر في صدر كل فصل منه بضع كلمات من كتاب اريسطو ، ثم ينطلق في الشرح والتأليف فيختلط قوله بقول اريسطو حتى يصعب فصلهما . واما الشرح المطوّل فان ابن رشد يذكر فيه فقرات اريسطو فقرة فقرة ثم يشرح اجزاءها شرحاً كافياً . ومما لا ريب فيه ان ابن رشد لم يكن يضع الشرح الكبير إلا بعد فراغه من الشرح الصغير . وقد قال فلاسفة الافرنج ان ابن رشد اعظم فلاسفة القرون الوسطى الذين تبعوا اريسطو وشرحوا اقواله .

ومن الكتب التي نقلها عن اريسطو ما يلي : الكون والفساد ، وما وراء الطبيعة ، والبرهان ، والنفس ، والاخلاق ، والسماء ، والكون ، وغيرها . وله ايضاً كتاب التهافت وهو رد على كتاب الامام الغزالي عنوانه : تهافت الفلاسفة .

طبع كتبه وترجمتها

ومما يحق لابناء اللغة العربية ان يخجلوا منه انهم اذا طلبوا كتب هذا الفيلسوف بين ما طُبع ونُشر من الكتب بلغتنا في النهضة الحديثة لم يجدوا شيئاً منها . ولما قامت شركة طبع الكتب العربية في القاهرة لاحياء المؤلفات القديمة الجليلة الشأن اعرضت عن مؤلفات هذا الفيلسوف كل الاعراض مع انه كان يجب جعل كتبه في مقدمة الكتب التي طبعتها . وذلك لعدة اسباب ، اولها ان القراء اكثر اقبالاً عليها منهم على سواها كما ظهر بعد الاختبار . وثانياً لانها اهم الكتب العربية على الاطلاق وحسبك انها كتب الفيلسوف الحقيقي الذي نبغ في الاسلام . وثالثاً لانه كان يجب في هذا العصر الذي جاز العلم فيه كل ما قام في سبيله من العثرات وظهر مصباحه ساطعاً من وراء الظلمات ان يكون صوت ابن رشد الجهوري ، ذلك الصوت الذي حاول الناس خنقه ولم يفلحوا ، اول صوت يطرق مسامع الابناء ليذكرهم بمجد الاجداد القديم لعلهم يذكرون عنده الاسباب التي محت ذلك المجد فيجتنبوها والامور التي نقلته منهم الى تلامذتهم الاوروبيين فيقتبسوها . فانه لا اعرف من ابن رشد بتلك الاسباب وهذه الامور ولا ارشد من كتبه اليها وادل منها عليها .

اما الافرنج فانهم عنوا بترجمة كتب ابن رشد اشد عناية

فترجمت مؤلفاته كلها الى اللغة اللاتينية، لغة العلم والعلماء في ذلك الزمان . وكذلك الاسرائيليون فانهم ترجموا كتبه الى العبرانية لانهم كانوا من حمَلة العلم في اسبانيا واوروبا . وكان منهم اكثر تلامذة ابن رشد . ويكفي لبيان الاهمية التي كانت لهذا الفيلسوف لدى الافرنج في صدر تمدنهم ان نقول ان في مدينـة البندقية وحدها اليوم اكثر من ٥٠ طبعة من مؤلفاته .

فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود

وقبل ايضاح فلسفة ابن رشد نأتي عـلى آراء المتكلمين الذين عارضوها اذ في هذه المقابلة تمام الفائدة فنقول :

ان المتكلمين، اي علماء الكلام في الدين الاسلامي، قد وضعوا فلسفة خاصة بهم . وربما لم يكن من الصواب ان تُدعى تعاليمهم فلسفة لانها عبارة عن مباحث دينية محضة، ولكن كل ما جرى فيه كلام عن الخالق عز وجل وعـالم الغيب وما وراء الطبيعة فهو فلسفة . ومن المعلوم ان كلمة فلسفة يونانية الاصـل وهي مشتقة من كلمتين : فيلوس ومعناها محبـــة ، وسوفيا ومعناها الحكمة . فالفلسفة معناهـا اذاً محبة الحكمة . وهل في عـالم الفكر الذي هو اشرف العوالم شيءٌ يستحق ان يُسمى حكمة غير البحث في اصل الحكمة ومصدرها الاعلى ؟

ففلسفة المتكلمين هذه مبنية على امرين : الاول حدوث المادة في الكون اي وجودها بخلق خالق . والثاني وجود خالق مطلق التصرف في الكون ومنفصل عنه ومدبر له . وبما ان الخالق مطلق التصرف في كونه فلا تسأل اذاً عن السبب اذا حدث في الكون شيء لان الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواه. اذاً فلا يلزم عن ذلك قطعياً ان يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق كأن ينتج بعضها عن بعض، لان هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده . وفي الامكان ان يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن وذلك بقدرة هذا الخالق .

روح جديد عصري

هذا لباب تعاليم المتكلمين ولسنا الآن في مقام البحث فيها بل اننا نبسطها لمقابلتها بتعليم ابن رشد . وانما نقول في معرض الكلام انه يلوح لنا ان كثيرين من علماء الكلام المعاصرين ومن اخواننا الكتّاب المسلمين قد ادخلوا شيئاً من النظام في تلك الفوضى . فاننا نطالع بامعان لا مزيد عليه كل ما تنشره رصيفتنا مجلة المنار الغراء من الدروس التي يلقيها فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في الجامع الازهر تفسيراً للقرآن فنجد في كل صفحة من صفحاتها روحاً جديداً اذا تمَّ

انتشاره كان بمنزلة اصلاح عظيم في العـالم الاسلامي . ومقتضى هذا الروح الجديد تقييد الكون بنواميس طبيعية وضعها الخالق له فلا يحدث شيء في العالم الا بها . غير ان الاستاذ لا يذهب في ذلك مذهب المـاديين الالهيين الذين يعتقدون ان الله سبحانـه وتعالى قـد خلق نواميس الكون واجراها في مجراهـا الطبيعي وقضى بان لا تخرج عنه ابداً . كلا لانه يعتقد ان الخالق الابدي الذي وضع تلك النواميس قد ينقضها حيناً من الزمن كلما شاء وذلك من اجـل المرسلين الذين يختـارهم لاصلاح حال البشر وهدايتهم الى منافعهم . ومهما يكن من هذا الأمر فكفى هذا الرأي اهمية وجلالاً انه يجعل للكون نظاماً طبيعياً ثابتاً يجري عليه . فالبشر الذين يدرسـون هذا النظام ويعملون به ينعمون ويسعدون في هذه الحياة، والذين يجهلونه ويخالفونه استناداً الى ان الخـالق يفتقدهم وهم جالسون في بيوتهم سواء سعوا ام لم يسعوا فـانهم يشقون وينحطون . ولقـد كان علماء الاديان في العصور المتقدمة ينكرون هذا الرأي ويكفرون صاحبه لاعتقادهم انه غير لائق بالخالق عز وجل . امـا اليوم فلم يبقَ مجـال لهذا الانـكار بعد الاكتشافات العلمية التي كشفت النقاب عن وجه النواميس الطبيعية التي تحكم الكائنات كلهـا من جماد وحيوان ونبات . ولكن ليس الفضـل للبشر اليوم في التسامح وقبول

هذا المبدإ الصحيح الجديد، وانما الفضل لاولئك الذين خاطروا في العصور المتقدمة في كل ملة وامة بمناصبهم وحياتهم وكرامتهم ولمن يحذو حذوهم في هذا العصر لايصال عالمنا المطبوع على الجهل والقسوة والتعصب الى هـذه الدرجة من الاعتدال والتسامح ومعرفة الحقائق الازلية الابدية .

فلسفته ورأيه في المادة وخلق العالم

اما فلسفة ابن رشد فانهـا تنـاقض الفلسفة التي تقدمت . واليك خلاصة منها :

المادة وخلق العالم

ان اعظم المسائل التي شغلت حكيم قرطبـة مسألة اصل الكائنات . وهو يرى في ذلك رأي اريسطو ، فيقول : ان كل فعل يُفضي الى خلق شيء انمـا هو عبـارة عن حركة . والحركة تقتضي شيئاً لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق . وهذا الشيء هو في رأيه المـادة الاصلية التي صُنعت الكائنات منها . ولكن ما هي هذه المادة ؟ هي شيءٌ قابل للانفعال ولا حدَّ له ولا اسم ولا وصف . بل هي ضرب من الافتراض لا بـدَّ منه ولا غنى عنه . وبناءً عليه يكون كل جسم ابدياً بسبب مادته اي انـه

لا يتلاشى ابداً لان مـادته لا تتلاشى ابداً . وكل امر يمكن انتقاله من حيز القوة الى حيز الفعل لا بـدّ له من هذا الانتقال وإلا حدث فراغ ووقوف في الكون . وعـلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم، ولولا هذه الحركة المستمرة لمـا حدثت التحوُّلات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شيءٌ قط . وبناء عليه فالعامل الاول الذي هو مصدر القوة والفعل ، اي الخالق سبحانه وتعـالى ، يكون غير مختار في فعله لان الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدَثاً والخـالق تنزه عن ان يكون حديثاً .

اتصال الكون بالخالق

هذا فيما يختص بخلق العـالم . وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى . ولكن كيف يستولي العامل الاول على الكون ويدبره ؟

لابن رشد في ذلك تمثيـل يدلّ على حقيقة مذهبه في هذه المسألة الخطيرة . فانه يشبّه حكومة الكون، اي تدبيره، بحكومة المدينة . فانه كما ان كل شؤون المدينة تتفرق وتتجـه الى نقطة واحدة وهي نقطة الحاكم العام فيها فيكون هذا الحاكم مصدراً لكل شؤون الحكم ولو لم تكن له يـد في كل شأن من هذه

الشؤون كذلك الخالق في الاكوان فانه نقطة دائرتهـا ومصدر القوات التي تدبرهـا وان لم يكن له دخل مباشرة في كل جزءٍ من هذه القوات . فبناءً عـلى ذلك لا يكون للكون اتصال بالخالق مباشرة ، وانما هذا الاتصال يكون للعقل الاول وحده . وهذا العقل الاول هو عبارة عن المصدر الذي تصدر عنه القوة للكواكب . وعلى ذلك فالسماء في رأي فيلسوف قرطبة كون حي بل اشرف الاحيـاء والكائنات . وهي مؤلفة في رأيه من عدة دوائر يعتبرها اعضاء اصلية للحياة . والنجوم والكواكب تدور في هذه الدوائر . اما العقل الاول الذي منه قوتها وحياتها فهو في قلب هذه الدوائر . ولكل دائرة منهـا عقـل اي قوة تعرف بها طريقها كما ان للانسان عقلاً يعرف به طريقه . وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضهـا ببعض والتي تلي بعضهـا بعضاً محكومة بعضها ببعض انما هي عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التي تُحدث الحركة من الطبقة الاولى في السماء الى ارضنا هذه . وهي عالمة بنفسها وبمـا يجري في الدوائر السفلى البعيدة عنهـا . وبناءً عـلى ذلك يكون للعقل الاول الذي هو مصدر كل هذه الحركات علم بكل ما يحدث في العالم .

طريق الاتصال

وان قيل ما هي علاقة الانسان بالخالق ، فالجواب عن ذلك

يأخذه ابن رشد ايضاً عن اريسطو من الفصل الثالث من كتابه النفس . وخلاصة ذلك ان في الكون عقلاً فاعلا وعقلا منفعلا. فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الانسان وغير قابل للامتزاج بالمادة . واما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء والتلاشي مثل باقي قوى النفس وانما يقع العلم والمعرفة باتحاد هذين العقلين . ذلك ان العقل المنفعل يميل دائماً للاتحاد بالعقل الفاعل كما ان القوة تقتضي مادة تنفذ فيها والمادة تقتضي شكلاً توضع به . واول نتيجة تحصل من هذا الاتحاد تُدعى العقل المكتسب . ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحاداً اشد من هذا فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها جد الامتزاج بالعقل القديم الازلي . ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل الاكتسابي الذي تقدم ذكره فانما وظيفة العقل الاكتسابي ايصاله الى حرم الخالق الازلي دون ان يدغمه به . واما ادغامه واتصاله به فذلك امر لا يتم الا بطريق العلم . فالعلم اذاً هو سبب الاتصال بين الخالق والمخلوق . ولا طريق غير هذا الطريق . ومتى اتصل الانسان بالله صار مثله عارفاً بكل شيء في الكون ولم يعد يفوته شيء . ولكن كيف يتصل الانسان بالله ؟ يتصل به بان ينقطع الى الدرس والبحث والتنقيب ويخرق بنظره حجاب الاسرار التي تكتنف الكون، فانه متى خرق هذا

الحجاب ووقف على كنه الامور وجد نفسه وجهاً لوجه امام الحقيقة الابدية .

اما المتصوفة فانهم يقولون ان هذا الاتصال يتمّ بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد وليس العلم ضرورياً له .

وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم . والكون في رأيه كما مرّ بك انما صُنع بقوة مبادىء قديمة مستقلة محكومة بعضها ببعض وكلها مرتبطة ارتباطاً مبهماً بقوة عليا . ومن هذه المبادىء شيء يستولي على العالم ويضع فيه العقل ، فهو عقل الانسانية . وهذا الشيء الذي يسميه عقلاً ايضاً هو عقل ثابت لا يتغير ، اي انه لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص . والناس يشتركون فيه ويستمدون منه بكميات متباينة . على ان من كان منهم اكثر استمداداً منه كان اقرب الى الكمال والسعادة .

الخلود

ولكن هل ان نفس الانسان خالدة ام لا في هذا المذهب ؟ وهل كان ابن رشد يعتقد بحياة ثانية ؟

ربما كان لابن رشد جوابان على هذه المسألة الخطيرة التي هي الآن دعامة عظيمة من دعائم الانسانية . فاننا في اثناء مطالعاتنا

لبعض كتبه قبل الاقدام عـلى ترجمته رأينا له في عدة مواضع كلاماً يدلُّ اصرح دلالة على اعتقاده بالحياة الثانية حتى بالعقاب والثواب ايضاً . فعجبنا كل العجب من تكفير الناس رجلا يرى هذا الرأي . ولكننا لما وصلنا الى مذهبه الفلسفي ورأينا متابعته لارسطو فيما يختص باعتقـاده بالنفس وخلق الكون تغير وجـه المسألة . ذلك ان ابن رشد كان يكتب هنـالك كرجل مؤمن خاضع لتقاليد آبائه واجداده، فهو يكتب بقلبه لا بعقله . اما عند بحثه بالعقـل عن مصدر العقـل وعلة العلل فقد كان يكتب كفيلسوف يدخـل بجرأة الاسد الى كهف الحقيقة المحجبة ولا يبالي . ولذلك قلنا انه ربما كان له في ذلك جوابان .

اما الجواب الاول فيما يختص بالعقـاب والثواب فهو قول مشهور وانما يزيد عليه ابن رشد وجوب التأويل . واما جوابه الثاني، اي الجواب الفلسفي الذي طلبـه بالعقل دون سواه ، فاليك خلاصته :

قال : ان العقل الفاعل العام الذي تقدم ذكره من صفاته انه مستقل ومنفصل عن المـادة وغير قابل للفنـاء والملاشاة . والعقل الخـاص المنفعل من صفاتـه الفناء مع جسم الانسان . وبناء عليه يكون العقل العـام الفاعل خـالداً والعقل المنفعل فانياً . ولكن ما هو العقل الفاعل العام الذي هو خالد في رأي

ابن رشد ؟ ان هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الانسانية . فالانسانية اذاً هي خالدة وحدها دون سواها . وبناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شيء مما يقوله العامة عن الحياة الثانية .

فلسفته الادبية

اما الفلسفة الادبية فلم تشغل سوى حيز صغير في مذهب هذا الفيلسوف بازاء فلسفته المادية . وقد صرف همه في تلك الفلسفة الى نقض مذاهب المتكلمين الذين يقولون ان الخير في يد الله وانه يصنعه بالبشر حينما يشاء وكيفما يشاء وبقدر ما يشاء من غير علة ولا سبب بل لان ارادته تقتضي ذلك . فمن رأي ابن رشد في ذلك ان هذا المبدأ ينقض كل مباديء العدل والحق لان ذلك يجعل حكومة العالم فوضى ربما شقي فيها الحكيم الفاضل وسعد الشرير اللئيم .

اما حرية الانسان فهو يذهب فيها مذهباً معتدلاً . فانه يقول ان الانسان غير مطلق الحرية تماماً ولا مقيدها تماماً . وذلك انه اذا نُظر اليه من جهة نفسه وباطنه فهو حر مطلق لان نفسه مطلقة الحرية في جسمه، ولكن اذا نُظر اليه من جهة حوادث الحياة الخارجية كان مقيداً بها لما لها من التأثير في أعماله .

تلخيص احد كتبه

وإتماماً للفائدة نلخص في هذه المقالة كتاباً لابن رشد عنوانه «فصل المقـال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» ليقف القارىء عـلى مذهب هذا الفيلسوف لفظاً ومعنى خصوصاً لان هذا الكتاب متعلق بالموضوع الذي بحثنا هنـا عنـه . وغرض المؤلف في هذا الكتاب ثلاثة امور : الاول اثبات ان الشرع الاسلامي يجيز اعتبار الموجودات بالعقل وطلب معرفتها به ، اي النظر فيهـا نظراً فلسفياً . والثـاني وجوب تأويل آيات القرآن التي ظاهرها يخالف البرهان والعقل . والثالث وجوب عدم ذكر هذه التأويلات في الكتب التي تُكتب لعـامة الناس لان ذلك يجر العامة الى الكفر . ولا ريب انه بهذا القيد الاخير قد دلّ على اعتداله ورزانته واضعف بـــه حجج اعدائه اللهمّ الا ان يكون غرضه فيه الحط من مقـام الامـام الغزالي الذي كان مقاماً للفلسفة اليونانية كما تقدم . وذلك لان هذا الامـام قـد بسط تلك التأويلات في كتبه .

وقد ابتدأ المؤلف الكتاب الذي نحن في صدده بقوله : اما بعد حمد الله بجميع محـامده والصلاة والسلام عـلى محمد عبده المطهر المصطفى ورسوله . وبذلك اعترف اعترافاً صريحاً بالاصلين

العظيمين من اصول الدين الاسلامي الذي كان يتهمه حساده بالمروق منه والزيغ عنه . ثم انه بعد ذلك يقول :

وجوب النظر بالقياس العقلي والاخذ عن غير المشاركين :
ان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها . وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها اتمّ كانت المعرفة بالصانع اتمّ . وقد جاء في القرآن : اعتبروا يا اولي الابصار . وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي او العقلي والشرعي معاً . وقوله : اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء؟ وهذا نص بالحث على النظر في الموجودات . وقوله : وكذلك نُري ابرهيم ملكوت السموات والارض ، الآية . وايضاً : افلا ينظرون الى الابل كيف خُلقت والى السماء كيف رُفعت . وايضاً : ويتفكرون في خلق السموات والارض .

قال : واذا تقرر ان الشرع قد اوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئاً اكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس او بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي . وليس لقائل ان يقول ان هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة اذ لم يكن في الصدر الاول من الاسلام ، فان اكثر اصحاب هذه الملة مثبتون القياس العقلي الا طائفة

من الحشوية قليلة وهم محجوجون بالنصوص . وان كان لم يتقدم احد ممن قبلنا بفحص عن القياس العقلي وانواعه فيجب علينا ان نبتدىء بالفحص عنه وان يستعين في ذلك المتقدم بالمتأخر حتى تكمل المعرفة به . وان كان غيرنا قد فحص عن ذلك فبيّنٌ انه يجب علينا ان نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك . وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا او غير مشارك في الملة فان الآلة التي تصحّ بها التزكية ليس يُعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة او غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة . واعني بغير المشارك من نظر في هذه الاشياء من القدماء قبل ملة الاسلام . ولما كان القدماء قد فحصوا عن امر المقاييس العقلية اتم فحص فينبغي ان نضرب بايدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فان كان صواباً قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منه غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

نقول اما كلمة عذرناهم هنا فانها في الحقيقة كلمة فيلسوف وهي اجمل ذلك القول الجميل .

ثم قال : لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة (علم الفلك) ورام انسان واحد من تلقاء نفسه ان يدرك مقادير الاجرام السماوية واشكالها وابعاد

بعضها عن بعض لما امكنه ذلك ولو كان اذكى الناس طبعاً الا بوحي او شيء يشبه الوحي . وهذا امر بيّن بنفسه ليس في الصنائع العلمية فقط بل وفي العملية فانه ليس منها صناعة يقدر ان ينشئها واحد بعينه ، فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة ؟

قد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء ، يعني الكتب اليونانية ، واجب بالشرع اذا كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه . وان من نهى عن النظر فيها من كان اهلاً للنظر فيها ، وهو الذي جمع امرين احدهما ذكاء القطرة والثاني العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية ، فقد صدّ الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله ، وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة ، وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى .

وجوب التأويل

ثم انتقل من هذه القضية بعد اثباتها الى قضية التأويل فقال : واذا كانت هذه الشرائع الاسلامية حقاً وداعية الى النظر المؤدي الى معرفة الحق فانا معشر المسلمين نعلم على القطع انه لا يؤدي النظر البرهاني الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له . اي ان العلم موافق للدين كما ان

الدين موافق للعلم . وبناء على ذلك قال الفيلسوف : ونحن نقطع قطعاً ان كل ما ادى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ، ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي ، واذا اعتبر الشرع وتصفحت سائر اجزائه وجد في الفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل او يقارب ان يشهد . ولهذا المعنى اجمع المسلمون على انه ليس يجب ان تحمل الفاظ الشرع كلها على ظاهرها ولا ان تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل ، والسبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف نظر الناس وتباين قرائحهم في التصديق . والسبب في ورود الظواهر المتعارضة فيه هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينهما . ولهذا المعنى ورد في القرآن : هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات . الى قوله : والراسخون في العلم .

وكثير من الصدر الاول قد نُقل عنهم انهم كانوا يرون ان للشرع ظاهراً وباطناً ، وانه ليس يجب ان يعلم بالباطن من ليس من اهل العلم به ولا يقدر على فهمه مثلما روى البخاري عن علي رضي الله عنه انه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ، اتريدون ان يكذب الله ورسوله ؟ ونحن نعلم قطعاً انه لا يخلو عصر من الاعصار من علماء يرون ان في الشرع اشياء لا ينبغي ان يعلم بحقيقتها جميع الناس .

ولكن هل اجماع الآراء في التأويل ممكن ؟ قال الفيلسوف : كلا . اذاً فما تقول في الفلاسفة من اهل الاسلام كأبي نصر وابن سينا، فان ابا حامد الغزالي قد قطع بتكفيرهما في كتابه المعروف بالتهافت في ثلاث مسائل : اولاً في القول بقدم العالم . ثانياً بانه تعالى لا يعلم الجزئيات، تعالى عن ذلك . ثالثاً في تأويل ما جاء في حشر الاجساد واحوال المعاد . قال الفيلسوف في ذلك : ليس تكفيره في ذلك قطعاً اذ قد صرح في كتابه «التفرقة» ان التكفير بخرق الاجماع فيه احتمال . ثم تناول ابن رشد مسألة علم الله بالجزئيات وهي المسألة الثانية فقال :

علم الخالق بجزئيات الامور

وقد نرى ان ابا حامد الغزالي قد غلط على الحكماء المشائين فيما نسب اليهم من انهم يقولون انه تقدس وتعالى لا يعلم الجزئيات اصلاً ، بل يرون انه تعالى يعلمها بعلم غير مجانس لعلمنا بها . وذلك ان علمنا معلول للمعلوم به فهو محدَث بحدوثه ومتغير بتغيره . وعلم الله بالوجود على مقابل هذا فانه علة للمعلوم الذي هو الموجود، فمن شبه العلمين احدهما بالآخر فقد جعل ذوات المتقابلات وخواصها واحدة وذلك غاية الجهل .

ونظر بعد ذلك في المسألة الاولى اي قدم العالم فقال ان فيها ثلاثة اقوال: طرفان وواسطة بين الطرفين. وقد اتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة. فاما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شيء غيره وعن شيء اعني عن سبب فاعل ومن مادة. والزمان متقدم عليه اعني على وجوده، ويدخل في ذلك النبات والحيوان والارض والهواء والماء وقد اتفق الجميع على تسميتها محدثة. واما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان. وهذا ايضاً اتفق الجميع من الفرقتين القدماء والاشعريين على تسميته قديماً وهو الله تبارك وتعالى فاعل الكل وموجده والحافظ له. بقيت الواسطة وهي: موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شيء اعني عن فاعل وهذا هو العالم باسره. والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم. والمتكلمون علماء الكلام متفقون ايضاً مع القدماء (اليونان) على ان الزمان المستقبل غير متناهٍ وكذلك الموجود المستقبل وانما يختلفون في الزمان الماضي، فالمتكلمون يرون انه متناهٍ .

واصحاب هذه المذاهب، من غلب عليه ما في الزمان من شبه

القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً . وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً ، فان المحدث الحقيقي فاسد ضرورة والقديم الحقيقي ليس له علة . ومنهم من سماه محدثاً ازلياً وهو افلاطون وشيعته لكون الزمان متناهياً عندهم في الماضي . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر .

وهذا كله مع ان هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر الشرع اذا تُصفّح ظهر من الآيات الواردة في الانباء عن ايجاد العالم ان صورته محدثة بالحقيقة وان نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين اعني غير منقطع ، وذلك ان قوله تعالى : وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ، يقتضي بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان اعني المقترن بصورة هذا الوجود الذي هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى : يوم تُبدّل الارض غير الارض والسموات ، يقتضي ايضاً بظاهره وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود. وقوله تعالى : ثم استوى الى السماء وهي دخان ، يقتضي بظاهره ان السموات خلقت من شيء .

ولكن اذا كان التأويل واجباً فهو لا يكون في الاصول

مثل الاقرار بالله تبارك وتعـالى وبالنبوات وبالسعادة الاخروية والشقاء الاخروي، بل يكون في الفروع، وان كان في الاصول فالمتأول له كافر مثل من يعتقد انـه لا سعادة اخروية ههنا ولا شقاء، وانه انما قصد بهذا القول ان يسلم الناس بعضهم من بعض في ابدانهم وحواسهم، وانها حيلة، وانه لا غاية للانسان الا وجوده المحسوس فقط .

واذا تقرر هذا فقد ظهر لك من قولنا ان ههنا ظاهراً من الشرع لا يجوز تأويله، فان كان تأويله في المبادىء فهو كفر، وان كان فيما بعد المبادىء فهو بدعة . وهنـا ايضاً ظاهر يجب على اهل البرهان تأويله، وحملهم اياه على ظاهره كفر، وتأويل غير اهل البرهان له واخراجه عن ظاهره كفر في حقهم او بدعة. وفي هذا الصنف آية الاستواء وحديث النزول، ولذلك قال عليه السلام في السوداء اذا اخبرته ان الله في السماء اعتقها فانهـا مؤمنة اذ كانت ليست من اهل البرهان . والسبب في ذلك ان الصنف من الناس الذين لا يقع لهم التصديق الا من قبل التخيل، اعني انهم لا يصدقون بالشيء الا من جهة مـا يتخيلونه، يعسر وقوع التصديق لهم بموجود ليس منسوباً الى شيء متخيل .

المعاد وحملته على الغزالي

ثم انه بعد هذا التمهيد تناول المسألة الثـالثة من مسائل

الغزالي ، اي مسألة المعاد ، فقال : يشبه ان يكون المخطىء في هذه المسألة من العلماء معذوراً والمصيب مشكوراً او مأجوراً. ثم قال : ان التأويل في هذه المسألة الخطيرة يجب ان يكون في صفة المعاد لا في وجوده على شرط ان يكون التأويل لا يؤدي الى نفي الوجود لان جحد الوجود في هذه كفر لانه في اصل من اصول الشريعة . واما من كان من غير اهل العلم فالواجب حملها على الظاهر ، وتأويلها في حقه كفر لانه يؤدي الى الكفر .

وهنا حمل حملة شديدة على الامام الغزالي فقال ما نصه :

ولذلك ما نرى ان من كان من الناس فرضه الايمان بالظاهر فالتأويل في حقه كفر لانه يؤدي الى الكفر ، فمن افشاه له من اهل التأويل فقد دعاه الى الكفر ، والداعي الى الكفر كافر . وهذا يجب ان لا تثبت التأويلات الا في كتب البراهين لانها اذا كانت في كتب البراهين لم يصل اليها الا من هو من اهل البرهان ، واما اذا ثبتت في غير كتب البرهان واستعمل فيها الطرق الشعرية والخطابية او الجدلية كما يصنعه ابو حامد فخطأ على الشرع وعلى الحكمة وان كان الرجل انما قصد خيراً وذلك انه رام ان يكثر اهل العلم بذلك ولكن كثر بذلك الفساد ليس بدون كثرة اهل العلم . وتطرق بذلك قوم الى ثلب الحكمة وقوم الى ثلب الشريعة وقوم الى الجمع بينهما . ويشبه

ان يكون هذا احد مقاصده بكتبه . والدليل على انـــه رام بذلك تنبيه الفطر انـه لم يلزم مذهباً من المذاهب في كتبه بل هو مع الاشاعرة اشعري ومع الصوفيـة صوفي ومع الفلاسفة فيلسوف وحتى انه كما قيل :

يوماً يمان اذا لاقيت ذا يمن وان لقيت معدّياً فعدناني

نقول وكأن الفيلسوف قد خشي ان يؤاخذ بما آخذ بـــه الامـام الغزالي لبسطه هو نفسه مبـادىء الفلسفة والتأويل في كتب تقع بين ايدي العامة كما في هذا الكتاب ، فقـــال تبرئة لنفسه : ولولا شهرة ذلك عند النـاس وشهرة هذه المسائل التي ذكرناها لـمـا استجزنا ان نكتب في ذلك حرفاً لان شأن هذه المسائل ان تُذكر في كتب البرهان . ولكن لو عاش الفيلسوف في هـذا الزمن ورأى السكك الحديدية التي قربت الابعـاد واختصرت المسافـات ، والصحافـة التي هي السكك الحديدية المعنوية للافكار لسرعة نشرها اياهـا ومزجها بعضها ببعض من جنوب الكرة الى شمالها ومن شرقها الى غربها ، لتحقق ان الطريقة التي أشار بها من ستر وجه الفلسفة عن الفئة الكبرى من البشر طريقة لم تكن الكرة الارضية قادرة على التزامها وقتاً طويلاً .

ثم عاد الى مسألة التأويل التي هي دعامة هذا الكتاب فقال انه اذا وقع إشكال في ظاهر القول الديني ولم يكن ظاهراً بنفسه للجميع وجب ان يُصرح ويقال انـه متشابه لا يعلمه الا الله . وان الوقف يجب هنا في قوله عز وجل : وما يعلم تأويله الا الله . وبمثل هذا يأتي الجواب بالسؤال عن الامور الغامضة التي لا سبيل للجمهور الى فهمها ، مثل قوله تعالى : ويسألونك عن الروح، قل الروح من امر ربي، وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً .

ولذلك ليس يجب ان تثبت التأويلات الصحيحة في الكتب الجمهورية فضلاً عن الفاسدة . والتأويل الصحيح هي الامانة التي حملها الانسان وابى ان يحملها واشفق منها جميع الموجودات ، اعني المذكورة في قوله تعالى : إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ، الآية .

وهذه التأويلات في الشرع هي التي كانت سبباً في نشأة فرق الاسلام حتى كفر بعضهم بعضاً وبدع بعضهم بعضاً وبخاصة الفاسد منها، ومن اتى بعدهم لمـــا استعملوا التأويل قلّ تقواهم وكثر اختلافهم وارتفعت محبتهم، فيجب على من اراد ان يرفع هذه البدعة عن الشريعة ان يعمد الى الكتاب العزيز فيلتقط

منه الاستدلالات الموجودة في شيء مما كُلفنا اعتقاده ويجتهد في نظره الى ظاهرها مـا امكنه من غير ان يتأول من ذلك شيئاً الا اذا كان التأويل ظاهراً بنفسه اعني ظهوراً مشتركاً للجميع .

ويعني الفيلسوف بذلك ان يُستخرج من القرآن في كتاب خصوصي كل العقائد الواجب الاعتقاد بهـا من دون تأويل او بتأويل ظاهر اجلى ظهور للخاصة والعامة لتكون اساساً مشتركاً لجميع المسلمين يبنون عليه معتقدهم بلا نزاع ولا جدال فلا تؤثر فيه مجادلاتهم في التأويلات الاخرى المفهومة وغير المفهومـة . قال : وبودنا لو تفرغنا لهذا المقصد وقدرنا عليه . وان انسأ الله في العمر فسنثبت فيه قدر ما يتيسر لنا منه . فعسى ان يكون ذلك مبدأ لمن يأتي بعد . فان النفس في غاية الحزن والتألم ممـا تخلل هذه الشريعة من الاهواء الفـاسدة والاعتقادات المحرفة ، وبخاصةٍ مـا عرض لهـا من ذلك من قِبل من ينسب نفسه الى الحكمة ، فان الاذية من الصديق هي اشد من الاذية من العدو ، اعني ان الحكمة هي صاحبة الشريعة والاخت الرضيعة ، فالاذية ممن يُنسب اليها اشدُّ الاذية .

هذا ما رأينا تلخيصه من هذا الكتاب للدلالة عـلى مبادىء ابن رشد وعلى منحاه في التأليف واسلوبه في المنـــاظرة ، وقد جمعنا في هذه الخلاصة كل اغراض المؤلف .

كان من المنتظر بعد ظهور ابن رشد في الاندلس ان يقوم بعده نوابغ من بني قومه يتوسعون في الدروس الفلسفية وينتفعون بالشروح التي وضعها ابن رشد على اريسطو وبذلك يكملون الحركة الاجتماعية والفلسفية ويقومون مقام فلاسفة الافرنج الذين جاؤوا بعدهم فاخذوا عنهم وكملوها . وانما كان ذلك منتظراً لانه من الصعب على العقل البشري ان يصدق ان تلك البذور الفلسفية التي بذرها هذا الفيلسوف تجف ذلك الجفاف في التربة الاندلسية وتختنق هذا الاختناق .

ومع ذلك فقد جفت واختنقت . جفت واختنقت لان شبهة الكفر كانت تقع بعد ابن رشد على كل مشتغل بالفلسفة . وبناء على ذلك انصرفت العقول عن صناعة الحكمة ولم يقم بعد ابن رشد فيلسوف كبير مثله ليكمل عمله .

على ان تلامذة ابن رشد الذين نشروا مبادئه بعده وترجموا كتبه الى العبرانية واللاتينية كان اكثرهم من اليهود والنصارى، ولقد انتشر في اوروبا مذهب ابن رشد في ذلك الزمان انتشاراً عظيماً حتى اضطر احد البابوات ان يحرم من الكنيسة كل من يعتقد بمذهب ابن رشد في الفلسفة .

بقي ان نذكر شيئاً عن اخلاق هذا الفيلسوف ، فنقول انه كان لطيفاً عفيفاً ميـالاً للعزلة منقطعاً الى الدرس والمطـالعة . واليك منه عبارة تدل على مبلغ شغفه بالدرس والتأليف . قال : ان الدين الخاص بالفلاسفة هو درس الوجود والكائنات ، ذلك ان اشرف عبادة تُقدم لله تعالى هي معرفة مخلوقاته ومصنوعاته لان ذلك بمثابة معرفته . هذا اشرف الاعمال التي يرضى الله عنها في حين انّ اقبح الاعمال عمل من يكفّر ويخطّيء الذين يقدمون لله هذه العبادة التي هي خير العبادات ويتقربون منه بهذه الديانة التي هي خير الديانات .

وكان بسيط المعيشة متقشفاً في حياتـه كارهاً للظلم . ولقد تولى القضاء سنوات عديدة دون ان يحكم قط بالاعدام على احد من الذين حوكموا لديه ، بل انـه كان حين وجوب الحكم بالاعدام يتنازل عن ذلك لسواه ، فكأنه يفرّ من الدماء لكي لا تقع في عنقه .

هل مذهب ابن رشد صحيح ؟

هذا مـا رأينا ذكره عن ابن رشد ، ولقد آن ان نختم هذه المقالة لانها قد طالت ومع ذلك فقد رأيناها قصيرة ونحن نكتبها

لان القلم لو ملأ كل صفحات هذا الجزء عن هذا الفيلسوف لما اروى غليله .

ولكن قبل الختام لا بدّ ان يحضر القارىء سؤال وهو : هل مذهب هذا الفيلسوف صحيح ؟ فالجواب عن ذلك ان القارىء يخطىء اذا كان يسأل عن صحة كل مذهب من مذاهب الفلاسفة او عن فساده . فان لكل واحد من الفلاسفة الذين يقفون حياتهم للبحث في ما وراء الطبيعة مذهباً خاصاً وفلسفة خاصة يناقضان مذهب الآخر وفلسفته . فمثلهم في ذلك مثَل قوم يجلسون على شاطىء البحر ويأخذون في بناء بيوت من الرمل والصخر والحجارة التي على الشاطىء ، ولذلك تجد في بناء كل واحد منهم رملاً وصخراً ، اي ضعفاً وقوة . وذلك اما لانّ الحقيقة المحجبة قد آلت على نفسها ان تبقى محجوبة عن ارض فيها ما في ارضنا من الصغائر والدنايا، او ان العقل البشري خُلق محدوداً ، وما كان محدوداً لا يحدّ ما لا حدّ له .

مريم وشيشرون

...فقالت مريم : فاسمع اذاً يا صاحب . تقول انك لم تتخذ اسمي الا وسيلة لاظهار مبادئك ، وأنا ايضاً لم اتخذ اهانتك لي إلاَّ وسيلة لاظهار ما في نفسي، فلا تظن انني غضبتُ هذا الغضب تأثراً باهانتك لي ، كلا ! — وضحكتْ — فان رأيك وآراء جميع الناس لا تهمني ، أما قلتُ لك انني اعدهم خنازير قذرة ؟ فمن يعتدُّ برأي الخنازير ؟ وانما الذي أغضبني في كلامك وأضحكني معاً شنك غارة شعواء على أمثـــالي من الضعفاء والمساكين والساقطين كما تدعوهم وتجريدهم من التعزية الكبرى والعـذر الأعظم الذي لهم في هـذه الدنيا ، فان كلامك يوهم ان هؤلاء الضعفاء والمساكين والساقطين انما سقطوا لضعفهم وانحطاطهم فقط ولذلك توجب نبـذهم بل دوسهم لكي لا يبقى في الهيئـة الاجتماعية الا الاقوياء الأشداء ترقية لها . فيا صاحبي انك تتحكم في البشر كأنك خالقهم . انني امرأة ساقطة كما تقول ، ولمجرد حكمك بأني ساقطة تقضي باهلاكي وافنائي من الوجود دون ان تبحث هل أنا اسقطتُ نفسي أم غيري أسقطني . انك ترى على

شاطىء النهر حمامة جميلة بيضاء تستحم في مياهه فتغدرها أفعى وتنقض عليها وتفترسها فتقول : الخطأ في جانب الحمامة لأنها افتُرست وهي ضعيفة يجب ان تهلك وتفنى ، أما الأفعى فهي قوية فيجب ان تعيش وتلد أفاعي اخرى لتفترس حمامات أُخرى . هذا ما تسميه ترقيةً يا صاحب ، وأيُّ عقل سليم وقلب ذكي يسلّم معك بتجريد الحمامة المفترَسَة من تعزيتها الكبرى وعذرها الأعظم بينما يتقطع لحمها ويتحطم عظمها تحت أنياب الأفعى ؟ اما تعزيتها الكبرى فهي اعتقادها بان الأفعى غدّارة خائنة قاتلة تستحق لعنة الله والناس وان جميع الناس يعتقدونها كذلك ، وكلما ازدادت الأفعى سمناً وانتفخت شحماً ولحماً يصبح جوفها المملوء بجثث فرائسها لاعناً ذلك الشحم واللحم الذي اكتُسب بالغدر والخيانة والقتل . هذه تعزيتها . أما أنت فتقول بحسب مبادئك وفلسفتك الراقية ان الحمامة مستأهلة نصيبها من الغدر والقتل لأنها ضعيفة .

فاضحكي يا أفاعي الأرض من هذه الفلسفة الجديدة وابكي لها يا حمام . هبك يا صاحب خالق الكون أنسيتَ ان خليقتك خُلقت طبقات طبقات بعضها أضعف من بعض ؟ وما لي اتكلم عن الحيوان فانني بذلك اقصّر حجّتي لأن غدر الحيوان وقتله أمران مألوفان ، وانت تعلم انني ما قصدت بكلامي الا التمثيل والقياس على الانسان .

فالبشر يُخلقون أقوياء وضعفاء ، وليس فيهم ضعيف الا وترى أضعف منه ، ولا قوي الا وترى أقوى منه : أفاعٍ وحمام ونعاج وذئاب ، فما ذنب النعجة اذا لم تستطع مقاومة الذئب ؟ وكيف تطلب مقاومتها له وهي خُلقت أضعف منه ؟ اذا كان هنا ذنب فالذنب هائل وهو واقع على خالقها لا عليها لأنه خلقها أضعف من الذئب . هذا هو العذر الأعظم للضعيف يا صاحب وأنت تريد تجريده من هذا العذر وجعل عذره هذا ذنباً له . ثم يا صاحب ما تعني بالقوة والضعف ؟ ان القوة والضعف في الحيوان قوة عضلية وضعف عضلي ، أعني قوة بدنية وضعفاً بدنيّاً . لا تستغرب معرفتي هذه الأمور فلدينا نحن بني اسرائيل علماء كما لديكم علماء ، وقد سمعت كثيرين من علمائنا يردّون على علمائكم ويقبحون مدنيتكم ، فالحيوان قوي او ضعيف بحسب نوعه وتركيب جسمه وقوة عضلاته .

أما الانسان فالقوة البدنية احدى قواه لا قوته كلها ، وقوته الكبرى هي قوة عقله .

بهذه القوة يتحكم في الأرض وكائناتها ويُخضع جميع قواتها . ألا تراه قد استأسر بها الفرَس والثور والرياح ، وهي أقوى منه ؟ أما سمعت ان اسكندر المكدوني غلب الفرس وجيشه أقل عدداً من جيوشهم ؟ أما قهرَنا واستأسرَنا قائدكم بومبيوس

بجيش قليل ، وعددنا نحن بني اسرائيل اضعافه ؟ ففي المجتمع البشري قوة فوق القوة البدنية وهي قوة العقل. فاسمع الآن ما قولك في رجل بليد جاهل لا يعرف من الدنيا شيئاً غير جمع المال بالطرق المحللة والمحرّمة ، وهمه في غش الناس للربح منهم ، جسمه كجسم الثور غلاظة وضخامة ، وعقله كعقل العصفور ، ورجل آخر ضعيف الجسم ولكنه قوي العقل صحيح الأخلاق ، يخترع لقومه آلات حربية يردون بها أعداءهم عن الاسوار ومطاحن لطحن حبوبهم ومناسج لنسج انسجتهم ومحاريث لحراثة أرضهم ؟

أيهما في شرعك هو القوي الذي يجب ان يعيش في الدنيا لأنه أنفع لها ، وايهما الضعيف الذي يجب ان يتلاشى في شرعك ؟ هل عندك شك في ان الثاني هو القوي الحقيقي لأن القوة الحقيقية الكبرى هي للعقل لا للبدن كما تقدم ؟ ولكن انظر ماذا يحدث في الدنيا يا صاحب ، فقد خبرت منها ما لم تخبر . يحدث ان الأول تكون افكاره متجهة الى جهة واحدة وهي التغلب على غيره بكل الطرق ، فعنده الغش والاحتيال والسرقة وتعمد ضرر الغير وخرق حرمة كل نظام وشريعة بطرقٍ يعرفها ويعرف انها لا توقعه تحت طائلة الشريعة ، والاستئثار بكل شيء ، واستخفاف كل شيء في الأرض والسماء إذ لا قيمة لشيء عنده

غير المال . كلّ هذه تبلغ لديه أشدّها وتوجّه جميع قوى نفسه الى نقطة واحدة تنحصر كلها فيه وهي ربح المال والوجاهة . وهو في هذا السبيل يجود بكل رخيص وغالٍ ويسلك هذا المسلك بهمة مشحوذة كهمة ذئب يطلب الفرائس في كل مكان. ويحدث ان الثاني تكون افكاره منصرفة الى وجهة اخرى . فان العاقل ذو ميل الى الاستزادة من العقل كما ان صاحب المال ذو ميل الى الاستزادة من المال ، فعقله متجه على الدوام الى طلب صفات العقل وهي اولاً نصبه أمام عينيه غرضاً شريفاً يسعى اليه في ما يسعى اليه من منافعه الذاتية ، والجدُّ في نفعه الذاتي ولكن ضمن دائرة الشريعة ، واحترام ملك غيره وعرضه وشرفه ليحترم غيره ملكه وعرضه وشرفه ، وترك العدوان والغش والاحتيال والكذب والسرقة لأن عقله ينهاه عنها وطبيعته لا تطاوعه عليها ، بل تنفّره منها لانها لم تُربَّ في ممارستها والتوجه اليها . فالآن اذا التقى هذان الرجلان في عمل ايهما تظنه يغلب رفيقه فيه ؟ ايهما يكون فيه الضعيف ، وايهما يكون القوي ؟

ان الرجل الثاني يحارب في ذلك العمل حرب رجل مقيَّد بقيود ضمن حدود ، وهي الحدود التي يرسمها له العقل واعتاد ان يعيش معه ضمنها . وأما الرجل الأول فيحارب حرب رجل

مطلق من كل قيود وحدود ، فبالكذب والاحتيـال والغش والسرقة والنهب والسلب يبلغ مناه ويتغلـّب على رفيقه المأسور ضمن سور مبادئـه . وهكذا تصبح الأرض ولا حق فيها الا للقوة اذ لا حق ، وتنمو فيهـا وتسود الغلظة والقسوة والغش والعدوان والسرقـة وجميع مظاهر القوة بينما تمحى منها مظاهر العقل والحق تدريجاً ، كما في ميدان تقتتل فيه وتتنازع حيوانات مدنيـة لا فرق بينها وبين الحيوانات الوحشية الا في ان تلك تمشي على ساقين وهذه على أربع .

فهل الانسانية الجديدة التي تريدها يا صاحب هي على شاكلة هذه الوحوش البشرية التي لا قيود لها ولا حدود ؟ أنا معك في هذا لأني تلميذتك ، ألا تراني أعيش بلا قيد ولا حـدّ أمرح في الدنيا كأنها فضاء أطير فيه من أفق الى أفق ، ولا حدود فيها توقفني عنـد شيء أو تمنعني من أن اضع يـدي فيها على شيء ؟ فلتحيَ الحرية يا صاحب ولتحيَ مبادئك وفلسفتك ، انك تبرىء بهـا القتلة وتذنـّب القتلى ، تعطي الحق للظالم وتلوم المظلوم ، توافق على فعـل السارق وتستهزىء بالمسروق ، وكأنك تقول لهم : لا تُنْصَفون الا اذا كنتم تَقتلون وتَظلمون وتسرقون . فالضعيف او الشهيد الذي يقع في جهاد الحياة هو المذنب الجاني فيجب حذفه من الوجود ، فكونوا كلكم قتلة وظلمة وسارقين فلا تُحذفوا ...

كانت مريم تلقي هـذا الكلام كصخر حطه السيل من علٍ وهي قائمـة بأوداج منتفخة وعينين ثائرتـين يلوح فيهما الغضب ويختفي طبقاً لموضوع كلامها . وكان شيشرون جالساً أمامهـا على العشب وعيناه شاخصتان في جهتها ، أما يوسف فانه كان قد تحمس لكلام مريم تحمساً شديداً فقـام واقفاً وخطا خطوة نحوها كأنـه يود ان لا يفوته كلمة منه ، وكان من حـين الى حين ينتقـل بنظره من مريم الى يوسف ومن يوسف الى مريم معجباً بحماسة مريم ومعاني كلامها ومراقباً وقـع ذلك الكلام لدى رفيقه شيشرون ، وقد رفع رأسه فخاراً بان مبادئه صدمت على شفتي مريم تلك الصدمة مبادىء شيشرون التي صدمته وأعيته فـدهش وسرَّ معاً . فانه دهش لأنه سمـع من فم تلك المرأة ذلك الكلام السامي وتلك الحجة القوية ، وسرَّ لانـه رأى ان الظلام الذي احاط بنفسه بعد سماعه مبادىء رفيقه قد أنقشع عنها وحلَّ النور محله . ولكن دهشته هذه وسروره هذا فسحا مجالاً في نفسه لعاطفة ثالثة اخرى . فان القارىء رأى فيما تقدَّم ان يوسف مال الى مريم أول ما لقيها تحت الرمانة ، فلما سمع منها هنا هذا الكلام ورأى ارتفاع نفسها الى مبادىء الفكر والخير ازداد ميلاً اليها وتعلقاً بها ، فكان وهو واقف أمامهـا خافق القلب تائه الفكر مدهوشاً حائراً يشبه صبياً مدهوشاً رأى

وهو واقف امـام مزبلة ملاكاً يخرج من المزبلة بين الأقـذار ويرتفع في جو النقاء والسناء نقياً طاهراً .

فأخذ يقول في نفسه وهو يمر يـده على جبينه لمسح العرق الذي كان يتصبب منه لثورة نفسه واضطراب باطنه : قالوا ان نوابـغ الأرض يكونون الهاً عظيماً او شيطاناً رجيماً ، على اني أرى هذه المرأة الغريبة الأخلاق قد جمعت الأمرين معاً .

ولما سكتت مريم لتمسح العرق عن وجهها بينما كان يوسف يفكر ويحلم مدهوشاً كما تقدم تململ شيشرون في مكانه ثم التفت الى مريم وقال :

هل فرغتِ من كلامك أيتها السيدة ؟ انـك اخطأتِ في ظنـك انني أقول ما قلتِ ، ومعاذ الله ان يكون غرضي ما ذكرتِ في بدء كلامك عن تجريد الحمامة المفترَسَة من تعزيتها الكبرى وعذرها الأعظم . كلا وانما غرضي ان تحتاط الحمامـة لنفسها لئلا تُفْتَرَس ... أفهمتِ الآن ايتها السيدة مريم ؟ ليس عمدة كلامي ان يدوس القوي الضعيف ، واعلمي ايتهـا السيدة انه اذا وردت هذه العبارة بمعناها ومبناها في اثناء كلامي فمـا هي الا تهديد نافع نقول به ، لا من اجل مصلحة القوي بل من أجل مصلحة الضعيف ليتشدد ويتقوى ، فلا يعتمد الا على نفسه في دفع الأذى عنه ، فكأننا نقول له : كن على حذر واشحذ

عزيمتك ونبّه نشاطك والا فانسحاقك ودوسك أمر محتّم . هل تأذنين لي ان اتكلم بحرية كما تكلمتِ ؟ لقد سرّني اشتغالك بكلامي بجدّ ، ولا تظني انه يسوءني منك شيء ، وهذا الرفيق الذي خبرته في يوم واحد ذو قلب كريم وعقل سليم ، وهو جدير بثقتك فلا يسوءنك كلامي امامه ، فاسمعي ما كنتُ اريد قوله لك منذ زمان وأغتنم الفرصة لقوله لك الآن اذ لا أجد فرصة أفضل من هذه .

انت ايتها السيدة مريم امرأة جميلة أنيقة ، جسمك صحيح قوي ، ونفسك جميلة لطيفة لأنني ارى في عينيك شعاع جمالها ولطفها ، ولا عبرة بحدّتهما وشراستهما أحياناً ، ولم يلذ لي شيء في حياتي قط كرؤيتي اياكِ يوماً جالسة بجانب الاكمة القريبة من منزلك ويمناك على كتاب مفتوح على ركبتك ويسراك تسند رأسك ، وعيناكِ تتيهان في الفضاء تحلمان وتفكران كأنهما تبحثان في أعالي الجو عن شيء مجهول فراراً من شيء مملول .

اي نعم يا مريم ان حلمك وتفكيرك هكذا يجعلني احلم وافكر ايضاً ، فانني اتصورك حين كنتِ في السادسة عشرة من عمرك فتاة ساذجة القلب حيّية ، اذا رشقك رجل بنظرة توردت وجنتاك خجلاً وخفق قلبك وجلاً . انك لم تقصّي عليّ الا طرفاً من تاريخ حياتك ، ولكنني الآن احلم واتصوّر كما

قلتُ لك، فدعيني اكمل حلمي وتصوري. انني اراكِ في صباك كما قلتُ فتاة حية طاهرة القلب تخرجين مع امك العجوز واخواتك الى الحقل لمساعدتهنّ في اعمالهنّ، وكانت امك اشدّ عناية بك منها بسائر اخواتك لانها كانت ترى فيك شيئاً ممتازاً عنهن، وهي بشاشتك، وعذوبة حديثك، وسلامة قلبك، وشدة اندفاع عواطفك حتى انه كان كل ما في قلبك على لسانك وكله كان جميلاً طاهراً، فكانت تقول: ان مريم وردة البيت فاذا دخلتْه وكان مظلماً استنار ببشاشتها وورد خدها. ولذلك كانت تأتيكِ وانتِ راقدة بجانب اخواتك في الصباح فتقبّلك اولاً ثم تخرج من بيتكم الصغير الى ارض امامه مغروسة ببعض الأزهار فتقطف وردة ثم تعود وتغرسها في شعركِ وانتِ نائمة وتقول: انظروا، ورد على ورد. فكنتِ اول انتباهك من النوم تستنشقين ريحين: ريح الورد في شعركِ وأنفاس امك الحنون التي كانت تستقبلك. ثم توفيت امك وانفرط عقد منزلك اذ تزوجت اخواتك وتزوجتِ انتِ أيضاً، ولكن كان نصيبك هائلاً... فاصبحتِ وحيدة فريدة في الدنيا ترين الناس يقومون ويقعدون ويروحون الى اعمالهم ويجيئون وانتِ منفردة ساكنة ليس لك أحد تعتمدين عليه وتستندين اليه. فماذا تفعلين؟ وكيف تعيشين؟ هنا وصلتُ الى الحمامة المفترَسة

التي استشهدتِ بها في كلامك ، فماذا كان ينبغي للحمامة أن تفعله لئلا تُفترَس ؟ لقد كان امامها طريقان : الاول ان تكون قوية فتتسلّط على عقلها وقلبها وتبادر بنشاط النحلة ودأب النملة الى كسب رزقها بيديها للاستغناء عن غيرها اذا لم تجد كفؤاً لها يصونها ويغنيها ، ولكسرة خبز تؤكل في هذه الحالة من الاستقلال وعزة النفس وشرف الاسم وطيب الاحدوثة بين الناس خيرٌ من جميع ثروات الدنيا وترفها اذا كانت، اي هذه الثروات، غير مقرونة بها . والطريق الثاني الاستسلام الى العواطف والأوهام ووهن العزيمة ... على ان تلك الحمامة لم تقدر على حسن الاختيار بين هذين الطريقين لأنها لم تهيّأ لهذا الاختيار ، ولم تُعدّ له ، وهذه عقدة المسألة .

هنا تظهر بأجلى بيان مبادئي التي سمعتِها وانتِ متوارية وراء الشجرة وغضبتِ هذا الغضب من أجلها . فمبادئي توجب على الحمامة ان تختار الطريق الأول اعني ان تكون قوية وتحذر وتنبّه نشاطها وتقوّي ارادتها وتختط خطة تسير عليها دون ان تترك للصدفة سبيلاً للعبث بها . القوة والارادة والدربة، هذا ما كان ينقص الحمامة ، فما كل حمامة تفترسها الأفعى مع قوتها وغدرها وانما تفترس الأفعى الحمامة التي لا تحتاط لنفسها ولا تحسن الدفاع عنها .

فماذا تقول الحمامة يا مريم اذا قلتُ لها هذا القول : انك أجمل الطيور الأليفة فلا تتركي الأفاعي تدنسك وتسطو عليك ... لقد خلق الله لكِ جناحين تطيرين بهما الى حيث لا تصل الافاعي اليكِ ... واذا احتطتِ لنفسك واعملتِ فكرتك ونشاطك ودربتك واستعملتِ ارادتك فليس لجارح أو كاسر في اعالي الجو قوة على الوصول اليكِ ، لأنك مع ضعفك وشدة ذلك الكاسر قد أُعطيتِ قوة على التخلص منه على شرط ان تشحذي قوتك وارادتك وتنبيهما فيكِ على الدوام ، ولكن اذا نمتِ عنهما وتركتهما تناممان واستسلمتِ الى الضعف والوهن والصدفة والاتفاق فعدم وجودك خير من وجودك في هذا الزحام الهائل في الحياة، لأن في عدم وجودك راحة لك، وفي وجودك ضعيفة بين الجوارح والكواسر ألم دائم وعذاب أبدي . هذا ما كنتُ اقوله يا مريم واغضبك ذلك الغضب ، هذا ما كنت اقوله في حمامة السماء واقوله الآن لحمامة الأرض ايضاً ... أمن حقك ان تثوري عليَّ تلك الثورة بعد هذا ؟ ألا ترينني في كلامي نصير الضعفاء لا نصير الأقوياء ؟ ألا تعتقدين ان مبادئي هذه هي الوحي الجديد الذي يحتاج اليه شرقكم الذي أفنته تلك المبادىء القديمة وأضعفت فيه كل حماسة للحياة الراقية واصابت روحه بالشلل ؟ لقد كنتُ في هذا صديقك لا عدوك يا مريم ، فاحكمي بعد ان سمعتِ .

قال شيشرون هذا الكلام ثم سكت وشخص في جهة مريم ليرى فعل كلامه فيها . وكانت لوائح الألم تلوح في وجه مريم من حين الى حين في أثناء كلامه ، فتارة يغور دمها الى قلبها فتبرد أطرافها ويصفر وجهها ، وطوراً يثور دمها ويفور فيصطبغ وجهها بلون قرمزي ويتوارد الدم الى دماغها تواردا يكاد يخنقها ، ذلك ان شيشرون اثار فيها بكلامه هذا عاطفتين هائلتين : الاولى عاطفة الكبرياء الذاتية ، والكبرياء ام الفضائل كما انها ام الرذائل ، فانه بثنائه عليها ووصفه جمال جسمها ونفسها وطهارة حياتها السابقة حرك ما كان كامناً فيها من الأشجان وردّ اليها نفسها الاولى التي كانت لها قبل دخولها في وادي الشقاء ... ولكن هذه العاطفة كانت ضعيفة بالنسبة الى العاطفة الثانية التي اثارها فيها كلام شيشرون البارع ، فانه لما أخذ يصف تربيتها في صباها ويذكّرها امها وحنوّها عليها وحبها لها وتعلقها بها وتفانيها من أجلها ثار كل ما كان مكنوناً في نفس هذه المرأة المسكينة من العواطف الطيبة والتذكارات العيلية الجميلة كأنّ زوبعة هائلة هبّت في داخلها فنسفته نسفاً . ولذلك لم يفرغ شيشرون من كلامه ويلقي عليها قوله الاخير : فاحكمي بعد ان سمعت ، حتى ارتخت أعصابها بعد توترها وانحنت قامتها بعد انتصابها وبقيت شاخصة في جهة شيشرون ساكتة جامدة

جمود الصنم ، وبعد انقضاء عشرين ثانية عليها وهي في هذه الحالة ارتعشت ارتعاشاً شديداً ورفعت بغتة يديها الى عينيها ثم استخرطت في البكاء كأنه أصابها ألم فجائي .

فدهش شيشرون ويوسف لما اصابها ونظر احدهما الى الآخر وقد تحركا كلاهما نحوها ، الا ان مريم لم تمهلهما ان يصلا اليها فانتفضت وصاحت وسقطت الى الأرض مغمى عليها اذ اصابتها نوبتها العصبية .

وبينما كان يوسف وشيشرون يُعنيان بمريم وينبهان حواسها وهما في حزن واسف لما أصابها كان راعي الغنم في اعلى شرفة الوادي ينادي قائلًا :

– يا قديس يوسف ، سيعلق بك شياطينها ، الحمد لله ان غنمي بعيدة عنها .

ثم ان الراعي تناول مزماره ونفخ فيه في وسط ذلك الهدوء انغاماً مطربة ، فكان مثالاً لفراغ البال والهناء في الخلاء ، بينما كانت مريم تحت الشجرة أمامه تتشنج وتصيح كمثال لآلام الهيئة الاجتماعية وشقائها واضطراباتها .

الفلسفة والمكاري بطرس

...وبينما كان كلدن وزوجته صاعدين مع حاشيتهما الى الحدث كان سليم وكليم يتأهبان للسفر منها الى الارز ، لأن اصدقاءهما في اهدن سافروا الى الارز وبعثوا يستعجلونهما . فقال كليم لرفيقه : ستتعرف بالمستر كلدن في الأرز فهلمّ بنا نسافر لان الاقامة هناك تحت ظل الأرز العظيم افضل من الاقامة هنا .

ولما دخل كليم وسليم لتوديع صديقهما امين ظهر الحزن في وجهه . وكان قد ازداد ضعفاً وهزالاً . فودعهما وهو يقول : اظن هذا الوداع هو الوداع الأخير . فقال كليم متأثراً : لم نعهد قلبك ضعيفاً ايها الصديق ، فعلامَ الخوف وانت متقدّم الى الصحة ان شاء الله؟ فهزّ امين رأسه وقال : هل تظن انني اخاف الموت؟ كلا ! فان الموت راحة لمن كان مثلي . وانما اتأسف لامر واحد.

قال ذلك وانحدرت الدموع من عينيه .

فترقرق الدمع في عيني سليم وكليم وقال كليم : ما هو هذا الشيء ؟ فقال أمين : هو ان اخرج من هـذه الحياة قبل ان انتقم من الظالمين .

ففهم كليم مراد أمين في الحال وأجابه : كن على ثقة ايها الصديق انك ستشفى وتنتقم لنفسك . فان الله اعدل من ان يسحق المظلومين ويرفع الظالمين . واذا افترضنا المحال وقويت عليك علتك لعدم مداراتك نفسك فاعلم ان الظالم سيسقط من نفسه لان كل ما يُبنى على الظلم فهو مهدوم . والبغي مرتعه وخيم .

فهزّ أمين رأسه وقال : وا اسفاه انني لا أرى هذا الأمر واضحاً كل الوضوح في الحوادث البشرية . ثم انطرح على فراشه يفكر والدموع ملءُ عينيه . وكان منظره حينئذ كمنظر جندي سقط قتيلاً في ساحة العراك في آخر النهار .

اما سليم وكليم فانهما ركبا بغلين قويين وانحدرا من الحدث قاصدين وادي حصرون . وكانا هذه المرة ساكتين يفكران بكلام الصديق امين . فسأل سليم رفيقه : هل من مانع يمنعك من اطلاعي على مراد أمين بكلامه الأخير ؟ فقال كليم : كلا ولكن ليست هذه القصة جديدة في الأرض ، فانها قصة كل المغلوبين والمقهورين والمظلومين فيها . انها قصة العراك الأبدي الذي بين الناس وهو ما يسمونه تنازع البقاء ، فان اميناً كان من موظفي الحكومة وكان محبوباً مسموع الكلمة لذكائه وعقله ، وكان على وشك الاقتران بفتاة يحبها وهي ذات دوطة طائلة .

وكان احد تجاركم في بيروت يطمع في دوطتها ليصلح بها احوال محله التجاري المتضعضع . فوشى لدى الحكومـة سراً بان أميناً يعاون حزب تركيا الفتاة ويراسله ، فعزل وسجن وأهـين ولم يطلق سراحه حتى ظهر مرضه . اما الواشي فـلم يتمكن مـن الاقتران بخطيبته لانها تركت الاثنين معاً .

فقـال سليم : ومن هو ذلـك الواشي ؟ فقـال كليم : هـو الخواجه لوقا طمعون . فقال سليم : هذا تاجر أصله من صيدا لا من بيروت وقد سمعت الناس يذمونه كثيراً لسوء اخلاقه .

وكان مع الرفيقين في هذه المرة مكارٍ من الحـدث وهـو شاب قوي البنية ربعة الجسم يُـدعى بطرس . فسأل رفيقيه : هل تمرون على الديمان في طريقكم يا خواجات ؟ فسأله كليم : هل اليوم غبطة البطريرك في مصيفه هذا ؟ فاجاب بطرس : كلا بل هو غائب . فقال كليم : فلنمض اذاً في سبيلنا .

وكانت يومئذ الدار البطريركية في الديمان داراً يـــدل ظاهرها على البساطة والقدم . اما اليوم فقد اقيم هنالـك قصر فخيم على الطراز الحديث للسلطة البطريركية .

وكأنّ سليماً وكليماً راما طرد الافكار السوداء التي كانت تتردد على ذهنيهما من كلام أمين ووداعه ، فقال الثاني للاول : لقد سلاّنا المكاري جرجس قليلاً من قلحات الى الحـدث فبماذا

يسلينا بطرس ؟ فقال سليم : اسمع. ثم التفت الى بطرس وقال له : يا بطرس لماذا تنادينا خواجات ؟ فاجاب بطرس بوجل : اذا كنتم بكوات يا معلمي فارجو السماح . فقال سليم : ولا بكوات ، بل نحن بشر مثلك ، فاذا كنا خواجات فانت خواجه ايضاً لان كل البشر اخوان. فتنهد بطرس وقال : هذا في القول يا معلمي فقط ، وما ابعد القول من الفعل ، الا ترى انكم راكبون وانني ماشٍ ، وهذا اول فرق بيننا . فضحك سليم وكليم وقال سليم لرفيقه : حقاً ان مكارينا نبيه . ثم التفت اليه وقال : ما عنيت هذا بقولي ، وانما عنيت اننا واياك متساوون لدى الحكومة ولدى الله وان كان البشر يعطون بعضنا امتيازات دون بعض . فانت لست بمديون لي بشيء سوى ما تقبض اجرته مني ، وانا كذلك ، فالآن انا راكب وانت ماشٍ باختيارك وطوعك حسب الاتفاق الذي عقدناه على ان اعطيك اجرة تعبك ، فلست اذاً امتاز عنك بشيء سوى انني تعبت وحصلت مالاً اقدر به على ان اريح نفسي من المشي، وبئست هذه الراحة لانني افضل ان اتعب مثلك واكون بصحة كصحتك .

وكان سليم يتكلم وبطرس يظهر الدهشة والاستغراب ، ثم اجاب : حقاً قلت الصواب يا معلمي . فصاح سليم : رجعنا الى

« معلمي »؟ اما انا بشر مثلك ؟ بـل انت الآن معلمي لانـك اقوى مني ونفعتني ببغلك اكثر ممـا نفعتك . فضحـك بطرس وقال : حقاً قلت الصواب فـيما يختص بالاجـرة والركوب . ولكن قولك يا معلمي اننا كلنا متساوون لدى الحكومـة والله فيه نظر ، فانني اصدق كل شيء الا هذا ، اما المساواة عند الله فلنضعها جانباً ، لاننا متى وصلنا الى هناك نبقى نتكلم عنهـا ، وامـا المساواة لدى الحكومة فـاحب ان تدخل على سعـادة القائمقام حين يصيف في الحدث وترى الناس كيف يجلسون في حضرته وبعد ذلك تبقى تتكلم عن المساواة لدى الحكومة .

فقال سليم : هذا ليس ببرهان لان الناس كثيراً ما يسيئون في تنفيذ الشرائع فلا تلصق الاساءة بالشرائع نفسها بل بمنفذيها.

فقال كليم لرفيقه : لا بأس بهذا الحديث اذا كان لا يحدث منه ضرر ، ولكني كنت اتمنى ان لا تكون هذه التجربة فينا لئلا نكون اول من يجني ثمارها .

ثم استمر الرفاق الثلاثة سائرين فقطعوا الديمان وهبطوا في وادي حصرون . وكان بطرس في اثناء ذلك يفكر في كلام سليم وهو يقول في نفسه : حقاً ما اجهلنا نحن سـكان القرى . صحيح ، ما الفرق بيننا وبين الخواجات والبكوات والحـكام؟ نحـن نأكل كما يـأكلون ونشرب كما يشربون ونمشي كما يمشون

ونفكر كما يفكرون وندفع ما علينا للحكومة كما يدفعون ، فلماذا يكون كل الاكرام لهم وعلينا الخدمة والطاعة والذل ؟ والله لما اعود الى القرية ويقول لي البك: اعمل هذا او لا تعمل هذا ، فكل جوابي يكون انني ادير له ظهري واهزّ رأسي وامشي في سبيلي .

وفي هذا الحين كان الرفاق الثلاثة قد قطعوا حصرون ووصلوا الى نبع ماء على الطريق ماؤه كالفضة الجارية صفاء والثلج الذائب برودة . فصاح سليم : يا بطرس ناولنا ماء لنشرب . وكان بطرس يفكر كما تقدم في عباراته الأخيرة . فكان كل جوابه لسليم ان هزّ رأسه وادار ظهره وسار في سبيله .

فقهقه كليم حتى كاد يقع عن ظهر البغل وقال لسليم : تفضل يا صاحبنا وانظر نتيجة مبادئك .

اما سليم فانه غضب وصاح ببطرس : قلت لك ناولني ماء لأشرب . فاجاب بطرس : ولماذا لا تشرب انت؟ فقال : لان كأس الماء بعيدة ولا أستطيع الدنو من النبع وأنا راكب . فقال بطرس : هذا امر سهل، فانزل واشرب . فقال سليم : انا لا امزح وأسألك للمرة الاخيرة اتناولني الماء ام لا ؟ فقال بطرس : وانا لا امزح لان مناولتك الماء لم تدخل في الاتفاق الذي ذكرته ، فاذا شئت الشرب فانزل واشرب .

وكان كليم في اثناء ذلك لا يزال يضحك ، فرغبة في انهاء هذه المسألة قال لبطرس : طيب هذا الأمر لم يدخل في الاتفاق كما ذكرت ، فناولنا الماء ونحن في مقابلة ذلك نسقيك خمسينية من عرق بشرّي .

فضحك بطرس حينئذ وقال : الآن تم الاتفاق . ثم دنا وناولهما الماء .

وبعد الشرب قال كليم لرفيقه وهما سائران : أرأيت نتيجة الحرية والاستقلال والمساواة والاخاء اذا ُبذرت بذورها قبل اوانها بين طبقات لم تستعد لها ؟

فاجاب سليم : ولكن مع غضبي من صنعه افضّل هذه الحرية التي هي في غير محلها على العبودية والذل والموت المعنوي . ولولا انني كنت شديد الظمإ وغلبني غضبي لما لمته بل كنت اقول له : برافو يا خواجه بطرس فان امثولتنا اثمرت فيك في ساعة واحدة .

فقال كليم : ولكن هنا مذهبان واحد معك وواحد عليك.

فقال سليم: ولكن مذهبي هو المذهب الصحيح الابدي الذي انتصر مع الثورة الفرنسية . هو مذهب الحياة والنور والحرية للطبقات الضعيفة التي تئن تحت نير الطبقات القوية .

فرح انطون



مناهل الادب العربي